# مجلّة

# المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة علمية دولية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

عدد خاص

الإيداع القانوني: 2005—1513
ردمد 23 - 65 - 1112: ISSN

المجلد 16. العدد 2. السنة السادسة عشرة. ديسمبر 2020 ( عدد خاص )

# مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

# مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية محكمة يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

مؤسس المجلة
أ.د.عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التّحرير
أ.عثمان شبوب

اللجنة العلمية للتّحرير
أ.د. محمد صاري
أ.د.أحمد حساني أ.د. تواتي بن التواتي
أ.د. بشير إبرير أ.د. عبد الجليل مرتاض

**للاتصال بنا:
عنوان المراسلة: 6 شارع العقيد محمد بوقرة-الأبيار – الجزائر/ص.ب-402- الأبيار – الجزائر
البريد الإلكتروني للمجلة: majala.aala@gmail.com
موقع المجلة على الأنترنت: asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/410
هاتف: 90 07 23 021 213 +/ الفاكس: 81 07 23 021 213 /71 07 23 021 213 +

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها، نشرت أم لم تنشر.
* كل باحث مسؤول عن آرائه.

# محتويات العدد

**1- خصائص اللغة العربية في ميزان البحث اللساني الحديث (الجزء الثاني)**

الطيب دبة.....**9**

**2- أمن اللغة العربية بين التهويل والتهوين مقاربة في ضوء التخطيط اللغوي**

محمد صاري.....**29**

**3- الممارسة التعليمية للنحو في مرحلة التعليم الإكمالي: عناصر تفكير**

إريك باجول (الترجمة لـ: الطاهر لوصيف).....**49**

**4- ملامح لسانية في مقامات الذاكرة المنسية لـ: حبيب مونسي**

صفية مطهري.....**59**

**5- مظاهر المحلية في الشعر العربي في الأندلس في القرن الثالث الهجري: مهيئاتها وبداية ظهور ملامحها في بعض موضوعاته (الجزء الثاني)**

عبد القادر هني.....**77**

# خصائص اللغة العربية
# في ميزان البحث اللساني الحديث (الجزء الثاني)

## Characteristics of the Arabic Language
## in the Balance of Modern Linguistic Research (Part Two)

**الطيب دبة**
جامعة عمار ثليجي - الأغواط
tayebdebba@gmail.com

**الملخص:**
يثير موضوع خصائص اللغة العربية في أوساط الباحثين الكثير من اللغط والصخب، والكثير من الجدل والاختلاف. وفي سياق السعي إلى تأطير هذا الموضوع تأطيرا كفيلا بضبط مفاهيمه، وتأسيس قضاياه على خلفية علمية راسخة ارتأينا أن ننطلق في معالجته من همّ التساؤل عن معطيات القراءة العلمية الموضوعية لما يُنسب إلى العربية من خصائص ومزايا. وللإجابة عن هذا التساؤل يبدو من الضرورة أن ننطلق - في تعرضنا لخصائص اللغة العربية - من مفاهيم اللسانيات الحديثة بوصفها خلفية منهجية كفيلة بتقديم جوابٍ مؤسَّس على معطيات موضوعية، وتحرّيات دقيقة، وأدلة علمية لا تدع مجالا للاتهام بالتعصب أو التوهم أو الصدور عن الانطباع. وفي هذا البحث محاولة للحديث عن بعض خصائص العربية ضمن هذا الاتجاه.
ولأننا قسمنا البحث إلى جزءين فقد اخترنا أن نتعرض في أوله لمجموعةٍ من الخصائص هي ألصق، في النظام البياني للعربية، بمستوياته اللفظية، وأدعى لبيان جوانب التميُّز فيها؛ وهي: خصائص الاشتقاق، والاطراد، والاقتصاد اللغوي.

**الكلمات المفتاحية:** اللغة العربية، الخصائص، المستويات اللفظية، اللسانيات.

**Abstract:**

The topic of the characteristics of the Arabic language sparks a lot of confusion and noise among researchers, as well as a great deal of debate and disagreement. In the context of seeking to frame this topic in a way that accurately defines its concepts and establishes its issues on a solid scientific background, we have decided to start addressing it by questioning the objective scientific basis for attributing certain characteristics and advantages to Arabic in scientific literature. To answer this question, it seems necessary to begin by exploring the concepts of modern linguistics as a methodological background that can provide a well-founded answer based on objective data, meticulous investigations, and scientific evidence that leave no room for accusations of bias, speculation, or subjective impressions. This research is an attempt to discuss some of the characteristics of Arabic within this approach. Since we have divided the research into two parts, we have chosen to first address a set of characteristics that are closely related to the structural levels of the Arabic language and to highlight aspects of distinctiveness within them. These characteristics include derivation, syntax and linguistic economy.

**Keywords**: Arabic language, characteristics, structural levels, linguistics.

**مقدمة:**

تناولنا في الجزء الأول من هذا البحث* ثلاثة خصائص في اللغة العربية سمتها أنها تتصل بمستويات البناء اللفظي للوحدات والتراكيب، هي: خاصية الاشتقاق، وخاصية الاطراد، وخاصية الاقتصاد اللغوي. وفي هذا الجزء سنتعرض -مثلما وعدنا به في مقدمة الجزء الأول- لثلاثة خصائص هي: المفارقة اللفظية ووظائف الوحدات، ودقة التمييز الوظيفي في الوحدات، وخاصية النظام المفتوح، وتبرز السمة العامة لهذه الخصائص في كونها تتصل بآلية الاشتغال الوظيفي في الوحدات والتراكيب. ومما يميز آلية هذا الاشتغال أنها تمتد عبر نظامَيْ اللغة المغلقِ والمفتوح، حيث تتعالق الوحدات فيما بينها بما يكشف - ضمن حركيتها البيانية- عن خصائص متميزة في أداء الوظائف.

## 1. المفارقة اللفظية ووظائف الوحدات في الجملة العربية:

تحتلّ سمة الاختلاف Différence بين الوحدات مكانتها بوصفها أحد أبرز المبادئ في النظريات اللسانية الحديثة؛ فقد تحدّث عنه سوسير في محاضراته مبينا أن اللغات البشرية لا تعمل في مجملها إلا وفق آلية التشابه والاختلاف[1]، ومما يشير إلى وجاهة هذا المبدأ في لسانياته قوله: «في اللغة ليس هنالك إلا الاختلاف [...] إن اللغة لا تتألف من أفكار ولا من أصوات سابقة على النظام اللساني، بل من اختلافات تصورية وأخرى صوتية نتجت من هذا النظام»[2]، ويقول في موضع آخر من محاضراته: «ما يهمّ في الكلمة ليس هو الصوت ذاته، بل الاختلافات الصوتية التي تسمح بتمييزها عن غيرها؛ لأن هذه الاختلافات هي التي تحمل الدلالة»[3]. وفي لسانيات ما بعد سوسير بدا الاعتماد على مبدا الاختلاف بشكل جوهري في كثيرٍ من النظريات لا سيما البنوية منها، تلك التي تعتمد منهج التحليل اللساني لظواهر اللغات.

ومع أن مبدأ الاختلاف، أو الخلافية، مبدأ لساني عام تستند إلى العمل به جميع لغات البشر فإن العمل به في نظام العربية يأخذ صورا بيانية مختلفة ومتميزة؛ ومن معالم تميُّزه، في العربية، أنه يشتغل بوصفه خلفيةً ضرورية في عمل القرائن الدالة على وظائف الوحدات، ومظهرا من مظاهر الاقتصاد في حركية البيان العربي وخصيصة من خصائصه التركيبية البارزة. وعليه فإن الذي يعنينا ههنا ليس هو إبراز مبدأ الاختلاف، في العربية، من حيث هو مبدأ لساني عام، إنما الذي يعنينا أن نتعرّض

لبيان عمله الدقيق في توجيه القرائن للتمييز بين وظائف الوحدات، وفي هذا ما يجعله خصيصة هي من أهم خصائص النظام البياني لوحدات اللغة العربية وتراكيبها.

ولأننا نسعى، في هذا المبحث، إلى الكشف عن التمثّلات الخاصة - ضمن هذا المبدأ اللساني العام - بالنظام النحوي في اللغة العربية فقد آثرنا أن ننعت خاصيتها بالمفارقة اللفظية[4] تمييزا لها عن هذا المبدأ العام، وتأسيا ببعض الاصطلاحات التراثية المشتقة من لفظ الفرق : "الفارقة"، أو "للفرق"، أو "للتفريق"، وقد جاء استعمالها في نصوص القدامى لغرض التعليل لكل علامة (أو قرينة) ارتبط وجودها بإقامة التمييز بين الوحدات المتشابهة والملتبسة؛ ومن الأمثلة في ذلك ما أسموه "الألف الفارقة"، أو "ألف الفصل"، وهي التي يستعرض النحاس لبيانها رأيَ الخليل، وذلك في سياق تعليله لألف "كفروا" و"صَدّوا" من قوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم﴾ [محمد:01] إذ يقول: «فمذهب الخليل رحمه الله أن هذه الألف زيدت في الخط **فرقا** بين واو والإضمار والواو الأصلية»[5]، وقد يستعملون مصطلح "التفريق" مثلما أورده المرادي يُبيّن علة ضمِّ فاء "فَعَلَةٌ" في جمع اسم الفاعل من الفعل الناقص (ومثاله: غازٍ غُزاة، وقاضٍ قُضاة) حيث يقول: «وذهب بعضهم إلى أن وزنه "فَعَلة" – بالفتح- وضُمَّت فاؤه **تفريقا** بين الصحيح والمعتل»[6].

وظواهر التفريق بين الوحدات المتشابهة والملتبسة التي لاحظها القدامى وسجلوها في نصوصهم كثيرة، سواء أكان ذلك في اعتبارات الرسم الخطي، أو في ما يقتضيه تقابل الوحدات في النظام الصرفي، أو في النظام النحوي، ومن أمثلة هذه الظواهر[7]:

- التفريق الخطي بين عمْرو (بتسكين الميم) وعُمَر (بفتحها)، وذلك بإضافة الواو إلى عمْرو ساكنة الميم.

- التفريق الخطي بين يحيى العلَم ويحيا الفعل، وذلك بكتابة ألف العلَم مقصورة، وألف الفعل ممدودة.

- التفريق بين ما الاستفهامية وما الموصولة، وذلك بحذف الألف من الاستفهامية إذا استُفْهِم بها مسبوقة بحرف الجر؛ ومثاله: ممَّ، وبِمَ ، وفيمَ، وعلامَ ..

- التفريق بين جمع فَعلان إذا كانت صفة، وجمع فعلان الاسم؛ ففي الأولى يأتي جمعها على زون فِعال؛ ومثاله: (غضبان، وعطشان)، فإنها تُجمع على فِعال

(غضاب، وعطاش)، بينما يأتي الجمع في الثانية على فَعالين؛ ومثاله: (شيطان شياطين، وسرحان سراحين).

- التفريق بين "إنْ" النافية و"إنْ" المخففة من الثقيلة، وذلك بلزوم خبر الثانية لام التوكيد؛ ومثاله: (إنْ زيد لفي الدار)؛ فوجود اللام يدل على معنى التوكيد الذي يحسم أمر "إنْ "بأنها المخففة خلافا للنافية في مثل: إنْ زيد في الدار، وعلامتها خلو ما بعدها من لام التوكيد.

وغير هذه الظواهر مما يجاء به للتفريق بين الملتبسَيْنِ كثيرٌ في نصوص القدامى. ولئن كان مبدأ المفارقة في هذه الظواهر يشتغل على مختلف المستويات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية فهو في مستوى التراكيب النحوية يبدو سمة بيانية لافتة، وحرية بالدرس والتحليل؛ ذلك أنه يشير إلى آلية متميزة في نظام العلامات والقرائن الدالة على الوظائف النحوية.

ولعلّ من أظهر صور المفارقة اللفظية بين الوحدات في التراكيب العربية استغناء بعض تراكيبها عن الروابط اللفظية التي تعتمد عليها كثير من اللغات، ومن صور هذا الاستغناء في بعض التراكيب العربية ارتباط المسند بالمسند إليه، أو المضاف بالمضاف إليه دون الحاجة إلى لفظ مساعد، وقد سبق بيانه في المبحث السابق؛ فنقول مثلا في المركب الإسنادي: العلم نور، والجهل ظلام، ونقول في المركب الإضافي: قلمُ خالد، ورسالةُ أحمد.

غير أننا حينما ننظر في مضمون المقارنة بين العربية واللغات الهندية الأوروبية سنجد أن الفرق ليس هو فقط في وجود اللفظ المساعد أو عدمه؛ ولو بذلنا مزيدا من التأمل في محصِّلة العلاقة بين طرفي الإسناد أو الإضافة - في العربية - لوجدنا أن تحصيل الوظيفة النحوية في العلاقتين لا ينتج في واقع الأمر عن رابط معنوي أو عملية ذهنية مثلما تشير إليه كتب النحاة القدامى[8]، ويقول به بعض المحدثين[9]، ولوجدنا أن الإسناد والإضافة ليسا قرينتين، بل هما محصِّلتان لقرينتين لفظيتين؛ فالارتباط المعنوي ليس في النهاية إلا أثرا لرابط لفظي ونتيجة له.

والحق أننا لا نردّ - بما نخوض فيه ههنا - قول من قال إن الإسناد رابط معنوي، ولا نشكك في وقوعه، لكننا نرى أن وقوع هذا الرابط المعنوي لا يتم إلا بوجود شروط لفظية لازمة تحصل بها المفارقة بين الشبيهين[10]، غير أنها شروط لا تظهر في صورة

لفظ محدد ومستقل كما هو الشأن في اللغات الأوروبية. ومن هذه الشروط اللفظية ما يقع به الإسناد في الجملة الاسمية مثلا؛ وهو أن يجيء المبتدأ معرفة ويجيء الخبر نكرة، أي أن الرابط ههنا هو المفارقة اللفظية بين طرفي الإسناد في التعريف والتنكير، أما أن يجيء المبتدأ والخبر نكرتين فهذا ليس من كلام العرب إلا إذا تضمن المبتدأ النكرة مسوغا من المسوغات التي حددها النحاة والتي يصير بها نكرة مفيدة. وهنالك صورة ثالثة يأتي فيها الخبر معرفة كالمبتدأ، مثل قولنا: "الطالب المجتهد" وهذه الصورة إما أن تحتمل فيها العبارة معنى مُلبسا مما يستدعي الاستعانة بضمير الفصل[11] لإزالة اللبس مثلما هو مبيّن في كتب النحاة فنقول: الطالب هو المجتهد، وههنا نصبح أمام رابط لفظي مستقل كما هو الحال في التركيب الإسنادي للغتين الفرنسية والإنجليزية، وإما أن يكون تعريف الخبر في هذه الصورة بغرض القصر أو التخصيص حرصا على أداء معنى نحوي إضافي مخالف للأصل. وقد نال هذا المعنى الإضافي لدى البلاغيين قدرا من الاحتفال. ومن أمثلة تعريف الخبر لغرض القصر أو التخصيص قول الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هذا ابن خير عباد الله كلهم *** هذا التقي النقي الطاهر العلم

ففي الجملة الاسمية المتعدد خبرها في الشطر الثاني من البيت السابق ورد الخبر معرَّفا خلافا للأصل، وذلك حفاظا على غرض الشاعر، واستنادا إلى أن إيراد الخبر معرفة هو طريق من طرق القصر والتخصيص مثلما هو مبين في كتب البلاغة. وبناءً عليه يتبيّن أن وجود اللبس ذاته في الجملة الاسمية المعرَّف خبرُها - وهو هنا ما يحتمل فيه الخبر المعرفة أن يكون خبرا أو أن يكون صفة - حجة واضحة لاعتبارنا المفارقة اللفظية بين المبتدأ والخبر سببا لفظيا واضحا للربط بينهما، ذلك أن التسوية بين طرفي الإسناد في التعريف هي ما أدى إلى اللبس، ومن هنا احتاج الأمر إلى المفارقة بينهما، وذلك بإدراج ضمير فاصل.

أما معنى الإضافة فإنما يحصل بتأثير شرط لفظي يقوم على المفارقة بين اسمي المركب الإضافي، وذلك بمجيء المضاف اسما غير منون، والمضاف إليه اسما مجرورا منونا، فنقول مثلا: هذا دفترُ زيدٍ، أو هذا دفترُ طالبٍ مجتهد، وتأتي أهمية هذه المفارقة اللفظية من أنه من دونها ينتفي معنى الإضافة، فلو جرّدنا المركب الإضافي

من هذه المفارقة اللفظية كأن نقول مثلا: دفترٌ زيدٍ، أو دفترُ زيدٌ، أو دفترٌ زيدٌ لما كان لمعنى الإضافة أثر أو وجود. وفي هذا دليل على أن ما يحصل به معنى الإضافة (أو معنى الإسناد) قرينة لفظية واضحة المعالم، وليس قرينة معنوية، وإن لم يكن قطعة لفظية محددة. جاء في كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة: «ولو أن قائلا قال: "هذا قاتلٌ أخي" بالتنوين، وقال آخر: "هذا قاتل أخي" بالإضافة، لدلّ التنوين على أنه لم يقتله، ودلَّ حذف التنوين على أنه قد قتله»[12]، ولا يمكن أن يقع المعنى الأول إلا بانتفاء الإضافة، ولا يمكن أن يقع المعنى الثاني إلا بوجود الإضافة.

أما الإسناد في الجملة الفعلية فلا تكون العلاقة بين طرفيه مرهونة برابط معنوي، إنما الرابط المعنوي ههنا ثمرة ونتيجة لعلاقة المفارقة اللفظية بين فعلٍ واسمٍ هو فاعل الفعل، ومعنى ذلك أن الإسناد وقع لوجود الاختلاف والتناظر بين الفعلية والاسمية. ولذلك لم يُحتج ههنا إلى زيادة رابط لفظي لتحقيق المفارقة كالذي نجده بين طرفي الجملة الاسمية (وهو ورود المبتدإ معرفة، وورود الخبر نكرة)، أو بين اسمي المركب الإضافي (وهو ورود المضاف نكرة غير منون، والمضاف إليه مجرورا)، لأن مجرد ارتباط اسم بفعل يكفي لحصول المفارقة استنادا إلى أن مقابلة كل منهما للآخر مقابلة بين نظيرين متباينين. أما في حال علاقة الإسناد بين المبتدإ والخبر، وكلاهما يوسم بالاسمية - وكذا في حال علاقة الإضافة بين المضاف والمضاف إليه، إذ هما يوسمان بالاسمية كذلك - فإن وقوع المفارقة بإضافة القرائن اللفظية الزائدة (التعريف والتنكير، والتنوين والجر) يصبح شرطا ضروريا من دونه تستوي الوحدات، وينتفي الاختلاف فيما بينها، وتتعطل وظيفة التواصل.

ويمكننا أن نشير إلى تراكيب أخرى يشتغل فيها مبدأ المفارقة اللفظية بشكل واضح؛ كالمفارقة بين رفع الفاعل ونصب المفعول، إذ لولا تحقيق الاختلاف والتباين بوجود هاتين الحركتين المتناظرتين لما جاز أن يتقدّم المفعول على الفاعل، وكالمفارقة بين وقوع الحال نكرة منصوبة ووقوع صاحبه معرفة للمفارقة بينه وبين الصفة التي يشترط فيها التطابق مع الموصوف، وكالمفارقة بين تقديم المتقدّم موافقة لوجه الأصل وتقديم المتأخر خلافا له لغرض في نفس المتكلم.

وقد يكون التقابل في المفارقة اللفظية ثلاثيا أي أن المفارقة تحصل بين ثلاثة عناصر كالمفارقة - في صيغة المنادى - بين النكرة المحضة التي تحصل بالتنوين

وبحذف لام التعريف، والنكرة المقصودة التي تحصل بحذف التعريف وحذف التنوين، والتعريف المحض الذي يحصل بلام التعريف وحذف التنوين.

أما التوابع كالبدل والصفة والعطف والتوكيد وغيرها فعلاقتها بمتبوعاتها لا تنطوي على مخالفة البتة لأنها لا تحتاجها؛ ذلك أنها تقوم على المطابقة والإلحاق، ولأن التابع في حكم المتبوع، إلا ما كان من تابع متميز كالنعت السببي؛ فهو لا يطابق متبوعه مطابقة تامة، لأن علاقاته تتنازعها جهتان: جهة متبوعِه المنعوت الذي لا يطابقه إلا في الإعراب والتعريف والتنكير، وجهة معموله الذي يطابقه في التذكير والتأنيث؛ مثلما هو شأن كلمة "طويلةٌ" من قولنا مثلا: "هذا رجل طويلةٌ قامتُه".

وبعد، يمكننا القول إن اللغات الأوروبية لا يمكن أن تدرك هذا المستوى من المنطق البياني المبنيّ على مفهوم المفارقة اللفظية، لأنها لغات يستند الذهن في تركيب وحداتها وفي تحليلها إلى مبادئ التقطيع والإلصاق واحترام الرتبة، وهي مبادئ تقييدية من شأنها أن تقلل من حظ اللغة في العمل اللساني الإجرائي الذي يستمد وجوده من مرونة التركيب، ومن اتساع طرق الدلالة القائمة على حركية المفارقة وتعددية الاحتمال والتوقع، وهو ما نجده متمثلا في نظام اللغة العربية بكل قوة ووضوح، لا سيما ما يتعلق منه بمستويات العمل اللساني المفتوح، حيث تبلغ مداها ممارسةُ العقل البياني لتحليل معطيات التأليف الإجرائي للوحدات وتفسيرها.

## 2. دقة التمييز الوظيفي في الوحدات:

نريد بالتمييز الوظيفي تحقيق الدلالة على الوجه الذي يستكمل به المتكلم شروط الإفهام، ويدرك فيه المتلقي أسباب الفهم والتأويل. وقد جاء في تعريف الوظيفة في قاموس جون ديبوا ما نصه: «نطلق اسم الوظيفة على الدور الذي يؤديه اللفظ (فونيم، مورفيم، كلمة، تركيب.. إلخ) في البنية النحوية لملفوظٍ مّا، وكل عنصر من الجملة يعد مشاركا في معناها العام»[13].

فالوظيفة هي الغرض الذي به تقوم اللغة، ويتشكل نظامها، وتتعالق وحداتها، فلا يُذكر شيء فيها ولا يُضمر، ولا يتقدم ولا يتأخر، ولا يُحذف ولا يُنقص منه، ولا يُزاد فيه إلا لغرض وظيفي ينهض به نظام اللغة في أيّ مستوى من مستوياته الصوتية أو الصرفية أو النحوية، أو لغرض في نفس المتكلم يريد التعبير عنه. ولا بد من الإشارة إلى أن تحقيق الوظيفة يتمّ عبر مجالين مختلفين ومتقابلين، أحدهما

داخلي له صلة وثيقة بالنظام من حيث هو صور مفترضة virtuelles، والآخر خارجي يتصل بظاهرة التواصل من حيث هي نشاط فعلي متحقق actualisé. ولأن الذي يعنينا في هذا المبحث هو الحديث عن خصائص العربية في ضوء معطيات الواقع اللغوي الداخلي، فسوف لا نتناول من مظاهر الدقة في التمييز الوظيفي للوحدات إلا ما يتصل بهذه المعطيات وبحيثياتها الداخلية.

ومما ينبغي توضيحه وتأسيس العمل به في هذا المبحث أن الوظيفة ضمن مجال الواقع اللغوي الداخلي لا يراد بها المعنى المعجمي أو الدلالة بمفهومها المادي، إنما يراد بها القيمة Valeur التي يمكن للوحدة اللسانية أن تؤدي من خلالها دورا (أو عملا) لسانيا في نظام اللغة بصفتها معطى صوتيا أو صرفيا أو نحويا. يقول سوسير فيما يدعم هذا المعنى لمفهوم الوظيفة: «ما يهم في الكلمة، ليس هو صوتها نفسه، وإنما اختلافاتها الصوتية التي تسمح بتمييزها عن غيرها من الكلمات، لأن تلك الاختلافات هي التي تحمل الدلالة»[14].

فالوظيفة إذن هي ذلك الدور الذي يمكن أن تؤديه الوحدة اللسانية انطلاقا من علاقتها بغيرها من الكلمات، أو انطلاقا من امتلاكها ما تتميز به عن غيرها من الكلمات. وبالنظر إلى هذه العلاقات تتحدّد الوظائف وتتقابل خصائص أنظمة اللغات، إذ الوحدات لا قيمة لها في أنفسها، وإنما قيمتها فيما تمنحه إياها العلاقات من خلال تنظيمات خاصة تختلف آليتها من لغة إلى أخرى، وربما نجد في مقولةٍ لمارتيني حول هذه الفكرة ما يُغني عن المزيد من الإيضاح، فهو يرى أن اللغات ليست مجرد نسخ للأشياء كما هي في الواقع، إنما هي بنى منظمة تعكس كل منها نظرة تحليلية متميزة لعالم الأشياء والأحاسيس من حيث يتصل بها تنظيم لساني خاص لمعطيات التجربة الإنسانية[15].

ومن إشارة مارتيني للنظرة التحليلية المتميّزة في بنى اللغات يمكننا أن نستلهم حديثنا عن التمييز الوظيفي للوحدات، وعن درجاته التي تتفاوت إزاءها أنظمة اللغات. والواقع أن اللغة العربية تختص - من حيث التمييز الوظيفي لوحداتها - بعمل لساني خاص، يدل على أنها تسلك في توجيه وظائف الوحدات مسالك بيانية محددة ودقيقة؛ فهي من جهة تستند إلى الصيغ الاشتقاقية - مثلما تقدّمت الإشارة إليه في المبحثين الأولين- باعتبارها تمثل آلية خاصة في إنتاج الدلالة تختلف عن آلية

الإلصاق، وهي من جهة أخرى تعتمد آلية الإلصاق، وذلك في الوحدات الصرفية التي يسميها النحاة بالعلامات (الـ التعريف، حركات الإعراب، علامات التأنيث، ألف المثنى، ميم الجمع..)، أما النمط الثالث من الوحدات فهو المبنيات مثل أسماء الإشارة وأسماء الاستفهام، والأسماء الموصولة، وغيرها.

من أهم ما يلفت النظر في هذه الأصناف الثلاث لوحدات الصرف العربي وفيما تصدر عنه من آليات بيانية مختلفة أنها تدل على ثراء وتنوع في إنتاج الوظائف من خلال شبكة دقيقة من العلاقات، فهنالك وظائف على مستوى الصيغ، أين يمتزج أكثر من مدلول في كلمة واحدة، وهنالك وظائف على مستوى العلامات، وهي عبارة عن زوائد تلتصق بالصيغة، وهنالك وظائف ترتبط بالمبنيات من حيث هي أدوات أو روابط نحوية، أو خوالف تنوب عن الصيغ.

أما اللغات المسماة بالإلصاقية فوظائفها تصدر عن آلية بيانية بسيطة؛ فهي إما وظيفة معجمية غالبا ما تحتل موضع جذر الكلمة Radical، وإما وظيفة صرفية أو نحوية[16] تأخذ مكانها ضمن ملصقة من الملصقات الملحقة بالجذر في أوله أو في آخره في الغالب، أو في وسطه لدى بعض اللغات أحيانا، مثلما سبقت الإشارة إليه في المبحث الأول.

ومن مظاهر الدقة في التمييز الوظيفي بين الوحدات في نظام العربية بلوغ التمييز بين الوحدات المتقابلة مدى أبعد وأدق مما تعرفه سائر اللغات؛ ومن صور هذا التمييز الوظيفي:

- التمييز بين التأنيث والتذكير على مستوى الضمائر، وذلك من خلال نظام تقابلي لا يكتفي بالتمييز بين المذكر والمؤنث على مستوى ضمائر الغياب (هو، هي، هم ، هن/ il, elle, ils, elles)، وإنما يضيف إليه التمييز بين ضمائر الخطاب (أنت، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن/ tu, vous). ثم هو لا يكتفي بالتمييز بين الضمائر، بل يضيف إليه تمييزا آخر على مستوى بنى الأفعال؛ فإذا كان، مثلا، الضميران هو (il) وهي (elle) في الفرنسية يتصلان بصيغة الفعل نفسها، ففي العربية يتصل كل منهما بصيغة تخصُّه؛ ومثاله: (هما تكتبان) للمؤنث، و(هما يكتبان) (بالياء) للمذكر، وإذا كان، مثلا، الضمير أنت (tu) في الفرنسية يتصل بصيغة واحدة للفعل لا تميز بين مؤنث ومذكر، ففي العربية يتصل الضميران أنتَ وأنتِ كل منهما بصيغة تخصُّه؛ (أنتَ

تكتبُ) للمذكر، و(أنتِ تكتبين) للمؤنث. ومن صور التمييز في هذا الباب، كذلك، إلحاق علامة التأنيث في آخر الفعل الذي يرِد فاعله مؤنثا، ومثاله: التاء من (كَتَبَتْ هند درسها)، والياء من (اكتبيْ درسك) [17].

- والتمييز بين التذكير والتأنيث في الأسماء، ويتم ذلك بإضافة علامة التأنيث في آخر الكلمة المراد تأنيثها، وبحذفها من الكلمة المراد تذكيرها، وهو ما نجده في كثير من اللغات، لكنه في العربية يبدو على قدر من التقابل اللفظي الدقيق في أداء الوظائف؛ فقد يقع تأنيث الاسم بإضافة علامة التاء في المفرد أو في الجمع (كاتبة، كاتبتان، كاتبات)، وقد يحصل بالصيغة في جملتها كما في تأنيث "أفعل" الذي مؤنثه "فعلاء" (أعرج، عرجاء)، وكما في تأنيث "أفعل" الذي مؤنثه "فُعلى" (أكبر، كبرى). والقدامى يعدون التأنيث هنا حاصلا بالعلامة لا بالصيغة؛ وهي هنا الألف المقصورة كما في فُعلى، أو الألف الممدودة كما في فَعلاء[18].

ومن ظواهر دقة التمييز الوظيفي في العربية كذلك التمييز بين العاقل وغير العاقل في الأدوات، كما بين "ما" و"من" الموصوليتين أو الاستفهاميتين، أو الشرطيتين، وكذا التمييز بين وظائف الحركات للتفريق بين أنواع صيغ الفعل (بين فعَل وفعُل وفعِل، أو بين فعَل للمعلوم وفُعِل للمجهول)، أو للتفريق بين الوحدات المعجمية مثلثّة الحركات أو مثناتها (كما بين بَر وبُر وبِر، وما بين لَبس ولُبس، وغيرها..)، ومنه التمييز في الحركات الإعرابية للتفريق بين الوظائف النحوية، والتمييز بين جموع القلة (كأفعال) وجموع الكثرة (كفعول)، والتمييز بين الأعداد في ظل تقابل ثلاثي بين المفرد والمثنى والجمع، وغيرها من صور التمييز في وظائف الوحدات.

### 3. خاصية النظام المفتوح في تراكيب العربية وأساليبها:

لم تهتمّ اللسانيات الغربية بظاهرة الانفتاح في نظام اللغة بقدر ما اهتمّت بظاهرة الانغلاق، ومع ذلك يمكن القول إنه منذ منتصف القرن العشرين تتابعت جهود لفيف من اللسانيين الغربيين[19] في سبيل بيان أهمية الجانب الحركي المفتوح في دراسة اللغة، وذلك بعد أن أدركوا أن «لسانيات اللغة تبدو مستحيلة إذا لم تكن أيضا لسانياتٍ للكلام»[20]، وأن من أبرز أسباب العقم في نتائج الدرس اللغوي أن تنكفئ مقدماتها على دراسة البعد السكوني في قواعد المبنى لا تتعداه، وأن «التنظير [اللساني] لا ينبثق بوصفه إنتاجا نهائيا لمعطيات مكدسة، بل يجب

الانتقال، دائما، إلى مرحلة التمثيل والإجراء والحساب. ويكون الأمر أكثر وجاهة حينما نجتهد في معالجة الظواهر المحوزة في بعدها الحركي وليس في وضعها الذي تكون فيه جاهزة وتامة»[21].

ولعلّ من أهم مقولات الخطاب اللساني في سلسلة الكتابات التابعة للسانيات الملفوظية واللسانيات التداولية القول إن اللغة ليست نظاما مغلقا على نفسه مثلما تحاول اللسانيات البنوية أن تؤكده في نظرياتها المختلفة، وإنما هي نظام ينفتح على المعطيات الخارجية بشكل لا نهائي ويتداعى إلى صور من الاستجابة الكلامية المتأبّية - في كثير من الأحيان - على التحديد والتقليص.

وفي هذا الصدد يمكننا الإحالة على بعض نصوص اللسانيين الغربيين: يقول أنطوان كيليولي A.Culioli : «إن اللغة نظام، لكنها نظام مفتوح»[22]، ويشير شارل بالي إلى أن اللغة على الرغم من أنها تبدو كيانا يقوم على الانسجام، والوحدة، والتنظيم فإن فيها الكثير من الجوانب الدالة على الفوضى والتصادم، وهذا ما يتجلى في الكلام[23]. ويرى إ. بنفنست - من خلال مقابلته بين السميائيات وعلم الدلالة - أن نظام اللغة يمكن دراسته ضمن لسانيات مزدوجة Double Linguistique تقابل بين الشكل والمعنى مقابلة تهيئ للفهم أن اللغة تتأسس بانغلاقها على عالم الأدلة Monde des signes، ولكنها مع ذلك تخترقه متّجهةً إلى ما تقوله تلك الأدلة[24].

في سياق قراءتنا لهذه النصوص التي يتناول بعضها مبدأ الانفتاح بشكل واضح وصريح وبعضها الآخر يشير إليه إشارة ضمنية لا بد من الإشارة ابتداءً إلى أن النظريات اللسانية الغربية المنضوية في اتجاه لسانيات اللغة لا تهتم بالنظام إلا في حدوده النموذجية المغلقة، سواء أكانت تعمل في مجال اللسانيات الوظيفية، أم في مجال اللسانيات التوزيعية، أم في مجال اللسانيات التوليدية والتحويلية؛ ذلك أنها لا تحتفل بالنشاط اللغوي في جانبه التحقيقي المفتوح إلا أن يكون مدونة النصوص التي تُستمد منها مبادئ النظام وقوانينه، أو أمثلةً وشواهد لإبراز إبداعية المتكلم في إنتاجه للغة وامتثاله لملكتها.

وحتى النظريات المهتمّة بقضايا التلفظ ولسانيات الكلام لا يوجد فيها - في حدود ما اطّلعنا عليه - إشارة محددة لمفهوم "النظام المفتوح" ولا تعريف واضح له. والواقع أنه باستثناء ما يرِد في كتابات بعض اللسانيين أمثال أ.بنفنست، وأ.ديكرو،

وأ.كيليولي، وم. هاليدي، ود.مانجينو لا نكاد نجد في اللسانيات الغربية من الاحتفال بدراسة الانفتاح في نظام اللغة ما يستحق الذكر، بينما نجد عظيم الاحتفال بدراسة مستوى النظام المغلق، لا سيما في النظريات اللسانية البنوية.

ويبدو أن السبب في انصراف اللسانيين الغربيين عن دراسة مفهوم النظام المفتوح يرجع إلى لغاتهم الأوروبية ذاتها، فلغاتهم - وهي النموذج التمثيلي الذي يستثمرون فيه مبادئهم ونظرياتهم - ليس فيها من الانفتاح ما يكفي لأن يتيح لهم وضع المفاهيم وصياغة النظريات؛ فهي لغات تنتظم وحداتُها وتراكيبها على أساس مبدأ الإلصاق Affixation، ومبدأ احترام المواقع، مما يقلّل من حظها في مرونة التركيب، وتعدّدية الوجوه، ولذلك فإن الدلالة تستند فيها إلى الصيغ اللفظية المُلصقة، وإلى التراكيب القارة أكثر مما تستند إلى إمكانية التعدد في الوجوه والقرائن والسياقات كما هو الحال في نظام اللغة العربية.

ولئن كانت اللغات الأوروبية لا تعرف الانفتاح من حيث هو معطى لغوي داخلي، وخاصية من خصائص النظام فهي تعرفه - شأنها في ذلك كشأن جميع لغات البشر - من حيث هو معطى خارجي يتم تحقيقه بوصفه أثرا من آثار النشاط اللغوي الفعلي في ظل تفاعل المعطيات اللسانية مع الوحدات غير اللسانية. ومن ضروب هذا النوع من الانفتاح استعمال الانزياح في المعنى، وبعض ظواهر التحقيق Actualisation كالتنغيم Intonation والوقف Pause، وهي ظواهر يدرجها بعض اللسانيين الغربيين ضمن ما يسمى بـ"العناصر الموسيقية" Eléments musicaux[25]، أو بـ"التحليل النغمي" Analyse mélodique[26]، أو بـ "التبديل النغمي" Modulation[27]، استنادا إلى اعتبارها معطيات دلالية هي فوق المستوى النحوي.

أما في اللغة العربية فظاهرة الانفتاح تستمدّ وجودها من نظامها ذاته أي من عناصرها اللغوية الداخلية، إضافة إلى وجودها في معطيات الواقع الخارج عن المدى اللغوي. يظهر ذلك مثلا في أساليب التقديم والتأخير، وفي أثر الإعراب في تلوين وجوه التعبير على مختلف المعاني، وأثر قرائن السياق في توجيه معاني الملفوظات، وغيرها من الأساليب والظواهر التركيبية التي تبدو صياغاتها مرتبطة ارتباطا وثيقا باختيارات الفعل الفردي لدى المتكلم، وبما تتضمنه هذه الاختيارات من أغراض ومقاصد، ومن توجيهات مقامية.

ومن ههنا يمكننا القول إن النظام في اللغة العربية يمتد عبر صعيدين اثنين: يكون في أحدهما مغلقا وفي الآخر مفتوحا. ولعل من أحسن مصطلحات التراث اللغوي العربي الدالة على مبدأ الانفتاح في اللغات مصطلح الاتساع أو التوسع الذي نجده مستعملا بكثرة لافتة للنظر، لا سيما في كتب البلاغة. والحق أن مبدأ الانفتاح هو من أخص الخصائص المميّزة للغة العربية، ومن أبرز العلل المفسرة لظاهرة المرونة والاتساع في تراكيبها، وإليه يرجع الفضل في قدرة نظامها على مواكبة العصور واستيعاب المستجدات.

**خاتمة:**

إن خصائص اللغة العربية كثيرة قد يستغرق إحصاؤها جهدا كبيرا من البحث والتقصي، ونكتفي ههنا بما أشرنا إليه منها على سبيل التمثيل لا الحصر، وحسبنا من ذلك كله أن نساهم في الكشف عن خصائص العربية وفي الحديث عن مزاياها بالاعتماد على مفاهيم اللسانيات، نظرا إلى كونها علما يمتلك من المفاهيم الدقيقة، والمبادئ الجادة، والأدوات العملية ما يؤهله لتقديم توصيفٍ علمي كفيل بتصحيح الكثير من الشبهات والأخطاء، وبالرد على الكثير من التهم الباطلة.

ومرة أخرى نكرر التنويه بما ينطوي عليه موقف الاستعانة بمفاهيم اللسانيات الحديثة في دراسة العربية وخصائصها؛ فنحن بهذا الموقف نحاول من جهة أن نقدّم الأدلة العلمية على رقي المنطق البياني في نظام اللغة العربية، ومن جهة ثانية نحاول أن نبين مدى التميز والاختلاف اللذين تحظى بهما العربية في مقابل الكثير من لغات العالم، ومن جهة ثالثة نسعى إلى اكتشاف منظور منهجي جديد يساعدنا في النظر إلى نظام اللغة العربية وإلى آلية منطقه البياني نظرة جديدة بإمكانها أن تقدم الكثير من العون في تحليل النصوص الإبداعية، وفي قراءة نصوص التشريع، وتفسيرها، واستنباط أحكامها، ومن جهة رابعة نحاول أن نؤكّد شرعية المطالبة بضرورة صياغة نظريات لسانية عربية خاصة، ذلك أن الكثير من المفاهيم والنظريات اللسانية الغربية لا تصلح لدراسة العربية ولا يمكنها أن تستوعب نظامها لأنها وُضعت في رحاب اللغات الأوروبية منطلقةً من أنظمتها، ومصوغةً على مقاسها.

وإنا نرى أن أحسن مبادرة للتنظير اللساني الخاص بنظام اللغة العربية هو إعادة قراءة التراث اللغوي العربي في ضوء النتائج التي توصل إليها الدرس اللساني

الحديث، ولكن مع مراعاة الفوارق الماثلة في الأسس الإبستمولوجية والخلفيات المنهجية التي ينطلق منها كل منهما، ومع مراعاة ما تعرفه العربية من خصائص ومزايا واختلافات فيما بينها وبين سائر لغات العالم.

## الإحالات والهوامش:

[*] الطيب دبة، خصائص اللغة العربية في ميزان البحث اللساني الحديث (الجزء الأول)، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2020، مج16، ع1.

[1] ينظر:

Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, Edt préparée par Tollio de mauro, Payot, Paris; 1972, p151.

[2] Ibid, p166.

[3] Ibid, p163.

[4] لا نعني ههنا بالمفارقة اللفظية ما يعنيه البلاغيون والنقاد المحدثون حينما يلتمسونها في الأساليب الانزياحية حيث يقع التضاد والتعارض بين المعنى المباشر لملفوظٍ ما والمعنى غير المباشر له. والمفارقة بهذا المعنى البلاغي لا تخرج عن كونها دالا يؤدي مدلولين نقيضين أحدهما قريب ظاهر نتيجة تفسير البنية اللغوية تفسيرا حرفيا، والآخر سياقي يُجنِّد القارئ في البحث عنه واكتشافه". ينظر: ناصر شبانة، المفارقة في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 64.

[5] أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، دار العرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص 990.

[6] المرادي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تح: علد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2000، ج3، 1390.

[7] للاطلاع على هذه النماذج وغيرها ينظر: مصطفى شعبان، ظاهرة التفريق في التعليل النحوي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، كانون الأول، 2019.، ع 99.

[8] ينظر المبرّد، المقتضب، تح: عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت، ج4، ص126. وينظر أيضا: ابن مالك، شرح التسهيل، تح. عبد الرحمن السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ج1، ص14. و: رضي الدين الاستراباذي، شرح الكافية في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص8-9.

[9] ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ص191-192. وينظر أيضا: مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1986/1406، ص 31.

[10] وذلك في حال كون المسند والمسند إليه اسمين ظاهرين هما المبتدأ والخبر، أي أنهما ههنا يتساويان ويتشابهان في الاسمية، ومن هنا احتاجا إلى الاختلاف بتعريف المبتدأ وتنكير الخبر. ومثل المبتدأ والخبر في التشابه المضاف والمضاف إليه - كما سيأتي بيانه في الفقرات المولية من المتن أعلاه - لتساويهما في الاسمية، ومن هنا احتيج إلى المفارقة بينهما بعدم تنوين المضاف وجر المضاف إليه. أما في حال كون المسند والمسند إليه فعلا وفاعلا، فالمفارقة حاصلة دون الحاجة إلى شروط لفظية.

[11] هذا لدى نحاة البصرة أما نحاة الكوفة فيعدّونه ضميرا للتوكيد وليس للفصل ويسمونه ضمير العماد.

[12] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شر: السيد أحمد شقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، سلسلة مكتبة ابن قتيبة، ط2، 1973/1393، ص14.

[13] Dubois, J. et autres, Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris, 2007. p216.

[14] De Saussure, C.L.G, p 163.

[15] Martinet.A, Elements de linguistique générale, Armand Colin, Paris, p11-12.

[16] Ibid, p15,19.

[17] ينظر: ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ج3، ص356.

[18] ينظر: المرجع نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

[19] أمثال: هاليدي، وأ. كيليولي، وأ.ديكرو، وإ.بنفنست. وهم الذين تصب أعمالهم في الاتجاه المسمى بلسانيات التلفظ أو الملفوظية Linguistique d'énonciation. ونشير أيضا إلى لسانيي مدرسة جنيف (ش.بالي، وأ.سيشهاي، وهـ.فراي) الذين يمكن أن نعدّهم أول من فتح الباب لدراسة اللغة في جانبها الحركي لوظائف الكلام وتلفظه إلا أن نظرياتهم كانت تُرتب - لأنهم تلاميذ سوسير والمتبعين لمنهجه - في عداد النظريات البنوية.

[20] Ducrot.O, Le dire et le dit, p. 67.

[21] Pour une linguistique de l'énonciation , Antoine Culioli, T01 , OPHRYS, 1990, p. 27.

[22] Sur quelques contradictions en linguistique, Culioli Antoinne, (Le Seuil), 1973, p. 87.

[23] Bally.Ch, La linguistique générale et la linguistique française, pp. 17-18.

[24] Benveniste.E , Problèmes de linguistique générale , pp. 217-229.

[25] Bally.Ch, La linguistique générale et la linguistique française, pp. 56-75.

[26] Georges.M, Clefs pour la linguistique, Seghers, Paris, 1968, pp. 130-131.

[27] Fuchs (Catherine) et Goffic (Pierre le), Initiation aux problèmes des linguistiques contemporaines, Librairie Hachette, Paris, 1975, p. 113.

## قائمة المصادروالمراجع:

### أ- باللغة العربية:


1- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح: السيد أحمد شقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، سلسلة مكتبة ابن قتيبة، ط2، 1973/1393.

2- ابن مالك، شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005.

3- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2001،الجزء الثالث.

4- الإستراباذي رضيّ الدين، شرح كافية ابن الحاجب، (تعليق: يوسف حسن عمر)، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، دون طبعة، دون تاريخ.

5- حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء.

6- شعبان مصطفى، ظاهرة التفريق في التعليل النحوي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، كانون الأول، 2019، العدد99.

7- المبرّد، المقتضب، تحقيق: عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، دون تاريخ.

8- المخزومي مهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1986/1406.

9- المرادي ابن أم قاسم، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000.

10- ناصر شبانة، المفارقة في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2002.

11- النحاس أبو جعفر، إعراب القرآن، دار العرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 2008.


### ب - باللغات الأجنبية:


1- Bally Ch, La linguistique générale et la linguistique française, Editions Francke Berne, 1965.

2- Benveniste.E, Problèmes des linguistiques contemporaines, LIBRAIRIE HACHETTE, Paris, 1975.

3- Culioli, A., Pour une linguistique de l'énonciation, T01, OPHRYS, 1990.
4- Culioli, A., Sur quelques contradictions en linguistique, Culioli Antoinne, (le Seuil), 1973.
5- De Saussure, (Ferdinand), Cours de linguistique générale, Edt préparée par Tollio de mauro, Payot, Paris; 1972.
6- Dubois, J. et autres, Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, Paris, 2007.
7- Ducrot, O., Le dire et le dit, Les Editions de minuit, Paris, 1984. 1973.
8- FUCHS, C. et GOFFIC (Pierre le), Initiation aux problèmes des linguistiques contemporaines, LIBRAIRIE HACHETTE, Paris, 1975.
9- Martinet, A. Éléments de linguistique générale, Armand Colin, Paris, 1968.
10- Merlat Gey (Directeur de la publication), Grammaire Anglaise, Brodard & Taupin, 2001.
11- Mounin Georges, Clefs pour la linguistique, Seghers, Paris, 1968.

# أمن اللغة العربية بين التهويل والتهوين
## مقاربة في ضوء التخطيط اللغوي

**Arabic Language Security Between Amplification and Underestimation**

**An Approach in the Light of Linguistic Planning**

**محمد صاري**
جامعة سوق أهراس - الجزائر
m.sari@univ-soukahras.dz

**الملخص:**

من أبرز القضايا الراهنة التي تتشاطرها اللغات الطبيعية في المجتمع الرقمي واقتصاد المعرفة مستقبل الأمن اللغوي المهدد لكثير من اللغات على الخريطة العالمية. ولا يخفى على المتخصصين أن فقدان الأمن اللغوي في زمن العولمة والهيمنة اللغوية وحرب اللغات لا يقل خطرا عن فقدان الأمن الغذائي والمائي والصحي والرقمي،إلخ، فالأمن اللغوي جزء من الأمن القومي، وعند فقدانه تتآكل الهويات وتتهالك، وتضمر اللغات، ويتلاشى الشعور بالانتماء، لا سيما في زمن تحولت فيه اللغات من أنظمة مغلقة، تحكم تغيرّها عوامل بيئية وسوسيو لسانية عفوية إلى أنظمة مفتوحة خاضعة للتغيير الاصطناعي، القائم على التدخل المقصود للإنسان في وضع اللغة ومستقبلها. وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نكشف عن الذاتي والموضوعي في بعض خطابات التهويل والتهوين التي ناقشت قضية "أمن اللغة العربية وحالتها الصحية" في العصرين الصناعي والرقمي.

**الكلمات المفتاحية:** أمن لغوي، حرب اللغات، تصحر لغوي، انتحار اللغة، سياسة لغوية، تخطيط لغوي، صيانة اللغة.

**Abstract:**

One of the most prominent current issues shared by natural languages in both the digital society and the economy of knowledge is the future of linguistic security of many languages which is threatened all over the world. It is no secret to specialists that the loss of linguistic security in the era of globalization, linguistic domination and language warfare is no less dangerous than the loss of food, water, health and digital security, etc. Linguistic security is part of national security, when lost, identities erode and decay, languages atrophy and the sense of belonging to the linguistic communities speaking those languages vanishes, especially in a time when languages have shifted from closed systems, which change is governed by spontaneous environmental and socio-linguistic factors, to open systems that are subject to artificial change based on the intended intervention of man in the status and future of language. Through this research paper, we will try to reveal subjective and objective positions in the amplification and underestimation discourses, which discussed the issue of "the security of the Arabic language and its health status" both in the industrial and digital eras.

**Keywords:** Linguistic security ; language warfare ; linguistic atrophy, linguistic suicide, linguistic policy, linguistic planning, language maintenance.

**مقدمة:**

اللغات البشرية وسائل وأدوات إسفنجية قابلة للانكماش والتمدد[1]؛ تتوالد وتنمو وتتطور وتتغير وربما تشيخ وتهرم، وقد تَنتحر أو تُغتال[2]! تحيا بالاستعمال وتنقرض بالإهمال، فهي بتعبير "هايدغر" أخطر النعم، وأخص خصائص الكائن البشري[3]. تلبي متطلبات التواصل الإنساني بشكل لا نظير له[4]. تفعل الكثير بالقليل، تُستخدم كصمام للأمان للحفاظ على النسيج الاجتماعي، وتوظف كأداة للتفكيك والتقويض؛ فهي داء ودواء. أحيانا تبدو واضحة لدرجة توهم أنها لا تستحق الدراسة، وعند الفحص تتمنع بدليل قضاياها الكثيرة التي لا تزال عالقة ومثيرة للجدل رغم تطور أدوات البحث ووسائل التشريح والكشف.

وما يُنشر في الآونة الأخيرة من بحوث ومقالات وكتب، وما يناقش في الندوات والمؤتمرات وبعض الحوارات المتخصصة، يكشف عن ظاهرة التصحر اللغوي (قياسا على التصحر الأيكولوجي)، الذي يهدد حوالي 3000 لغة في القرن الواحد والعشرين[5]. ومن هذه العناوين نذكر: "العرب والانتحار اللغوي"، و"اغتيال اللغة"، و"ضعوا حدا لموت اللغات"، و"سوق اللغات: التأثيرات اللغوية للعولمة"، و"حرب اللغات والسياسات اللغوية"، و"اللغات حرب حتى الموت"، و"الهيمنة اللغوية"، و" اللغة والهوية"، و"Une langue à défendre "، و"Le soufflet de la langue"، و" Combat pour le français"، و"A la mort des langues "... إلخ؛ فعناوين هذه المصادر وغيرها تفصح عن موت محتوم يترصد كثيرا من اللغات ولا سيما تلك التي تفتقر إلى المناعة والحصانة والقدرة على المقاومة.

ولمواجهة نزيف التنوع الثقافي وثرائه وخصوبته، سارعت منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة من خلال برامج ومشاريع متنوعة كـ: "مشروع الكتاب الأحمر للغات المهددة بالزوال"[6] إلى الإعلان عن محميات لغوية (قياسا على المحميات الطبيعية) لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ظاهرة التنوع اللغوي. ومن دون شك فإن انقراض لغة ما يخلف ضريبة باهظة على التنوع الثقافي، وخسارة لا تعوض من المعارف المتميزة والمتفردة[7].

**2. أسئلة لا بد منها:**

يثير الحديث عن الأمن اللغوي للغة العربية تساؤلات عديدة لعل أبرزها: ما

التحديات التي تهدد اللغة العربية في وجودها في زمن تحتمت فيه التعددية، وتقوض فيه أو كاد شعار "لغة واحدة لشعب أو أمة واحدة"؟ لماذا الخطاب المتشائم عن تراجع العربية؟ هل أزمتها أزمة لغات أجنبية منافسة؟ أم أزمة لهجات مزاحمة؟ أم أزمة سلوكات ومواقف وسياسات؟ وهل يستقيم الخيار اللغوي في معزل عن الخيار السياسي؟ وما الإستراتيجيات التي يمكن أن تبتكر لمواجهة الأضرار التي تُلحقها السياسات العربية باللغة العربية؟ وأين يتموقع اللساني من حرب اللغات والهيمنة اللغوية؟ وما السبيل لجعل اللغة العربية عملة رائجة كما كانت في عصورها الذهبية؟ فهل يمكن أن نراهن على "المقدس" من جديد؟ وهل من السهولة أن يتحقق ذلك في عصر الترويج لمفهوم "الإسلام فوبيا" الذي ملأ الدنيا وشغل العالم؟ ...إلخ. أسئلةٌ طَرْحُهَا سهل ولكن أجوبتها شديدة التعقيد، بل حرجة أحيانا، وبخاصة ما تعلق منها بالسياسات اللغوية والمواقف والسلوكات. ويمكن أن يشكل كل واحد منها موضوعا مستقلا بذاته[8].

### 3. اللغة العربية وخطاب التهوين والتهويل:

لكي نكشف بموضوعية عن مدى تمدد اللغة العربية أو تقلصها، ونقوِّم مدى حضورها أو غيابها في المشهد اللساني الراهن، لا بد من تقييم للواقع الذي هي عليه، بالطبع بالنظر إلى ما كانت عليه وليس بالنظر إلى ما ينبغي أن تكون عليه؛ فواقع اللغة العربية في زماننا الراهن، عصر الفجوة الرقمية ومجتمع المعرفة يشير أنها تحتل، في نظري، موقعا جغرافيا وحضاريا لا يستوجب الفزع، ويمكن الاطمئنان إليه نوعا ما بالمقارنة مع عصور النكسة، ومراحل الضعف والتبعية؛ فرغم الاختلاف الواضح بين الباحثين حول سلم ترتيب اللغات الأكثر انتشارا، فإن التوزيع الحالي للغة العربية يجعل لها مكانة مقبولة إن لم نقل معتبرة ضمن اللغات الرئيسية العالمية كالإنجليزية، والفرنسية، والصينية، والروسية، والإسبانية[9]. ولكن بالنظر إلى الرواج العالمي والبعد الوظيفي يمكن الحكم بأن جميع هذه اللغات مريضة بما فيها اللغات القوية اقتصاديا ومعرفيا، كالفرنسية والألمانية واليابانية... إلخ. وأصحابها قلقون على وضعها ومنزلتها، وعلى مستقبل التنوع اللغوي والثقافي المهدد بالتجنيس والعولمة. وأما عن مرضها ومصدر قلق أصحابها فهو الغزو السرطاني للنظام العالمي الجديد، الذي اتخذ اللغة الإنجليزية مدخلا رئيسا له؛ فمرضها إذا

اسمه "إمبريالية اللغة الإنجليزية"؛ الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس كما يقال. فاللغة الإنجليزية أزاحت لغات، وحجّمت أخرى منافسة لها، والسبب في هذه الهيمنة ليست مورثات جينية متواجدة بالطبيعة في الجسم الحي للغة الإنجليزية، وإنما القوة الذاتية،[10]وطاقة المصادر المادية والوظيفية حول ما تفعله الإنجليزية، والمستمدة من التفوق النوعي في المجالات الحيوية وعلى رأسها المجال المعرفي والرقمي والاقتصادي والسياسي والتاريخي والعسكري...إلخ؛ فمرض اللغات إذا داخلي يتمثل في تقهقر بعضها على صعيد الوسط الذي تتحرك فيه، والسبب مرض خارجي اسمه اللغة الإنجليزية، كما يذهب إلى ذلك لويس جان كالفي في كتابه "حرب اللغات والسياسات اللغوية".

وفي سوق اللغات يتأرجح أمن اللغة العربية بين خطابين متضادين؛ خطابات هونت المسألة اللغوية وأخرى نحت نحو التهويل، وتتمظهر هذه الخطابات بوضوح على مستوى السياسات، والسلوكات، والمواقف، والتصريحات، والكتابات، ولاسيما في المناسبات المختلفة التي تتناول وضع اللغة العربية ومستقبلها في المشهد اللساني المحلي والإقليمي والعالمي. ومن مظاهر نزعة التهوين، وهشاشة الوعي بأهمية اللغة العربية في حياة الناس ومستقبلهم بتعبير المسدي، ما يلاحظ على مستوى الحضور الشكلي أو الرمزي للغة العربية في صورة قوانين، ونصوص تشريعية، ومراسيم، وقرارات، ولوائح، وتعليمات، وخطابات...إلخ، وغيابها الوظيفي عن المجالات الحياتية الحيوية، وعدم الثقة في طاقاتها الذاتية؛ فما تقوله السياسة شيء، وما تفعله شيء آخر.[11]

ومن حسن حظها أن الدساتير العربية كلها تمجدها ! والمجامع اللغوية تعتز بها ! والمجالس العليا تقدسها وتتفانى في خدمتها ! ومن النخبة من يشك في مدى صلاحيتها، ويجرمها قبل تجريبها (بتعبير عبد العلي الودغيري!) وبعض الساسة يتباهى بمخاطبة شعبه بغيرها ! ويعتقد أن اللغة الأجنبية دواء لحل جميع مشاكل التنمية، والتأويل الاتكالي متيقن من خلودها !! والفكر السلفي مطمئن أن للكعبة ربا يحميها !! وكتاب "خمس عشرة سنة من النضال في خدمة اللغة العربية" للدكتور عثمان سعدي شاهد على الترصد لاغتيالها .[12]

إن اللغة العربية كما تفصح الدساتير هي اللغة الوطنية والرسمية للأمة، ولكن واقع المنابر، والمجالس الفكرية، والمراسلات الحكومية، والحوارات، وفصول الدراسة، ومدرجات الجامعة، ووسائل الإعلام، وغير ذلك، تهيمن عليه لغات أجنبية، وخليط من اللهجة والفصحى، وتغزوه العاميات المفصحة. أيعقل أن تتراجع بعض السياسات اللغوية العربية مرتدة بعد النجاح الذي حققته الجامعات في مرحلة ما على مستوى تدريس العلوم الأساسية (الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والعلوم الطبيعية) باللغة العربية؟! ومن المستفيد من قانون تجميد استعمال اللغة العربية في المعاملات الحكومية الرسمية؟!

ومن مظاهر التهوين أيضا انتقال الطالب الجامعي المتخصص في الفروع التقنية والعلمية انتقالا مفاجئا من تلقي العلوم باللغة العربية، إلى تلقيها باللغات الأجنبية، علما أن الفجوة اللغوية من لسان إلى لسان آخر تحدث فجوة مفهومية لدى الطلاب، تعوقهم عن الفهم والتفكير والتعبير. والضعف الذي يُلاحظ لدى معظم طلاب الجامعة، والرسوب الواضح لكثير منهم، لا يعودان إلى نقص في الذكاء والعبقرية ولكن إلى الفجوة اللغوية بعد اعتيادهم على تلقي المعارف والعلوم في مراحل التعليم العام باللغة الوطنية، فالفشل المعرفي هاهنا فشل لغوي في أغلب الحالات. وعليه إذا خسرنا الحرب (حرب اللغات بالطبع) فلا غرابة! لأننا كما يقول "نزار قباني" ندخلها بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة!

أما عن ظاهرة التهويل فتبرز عادة عندما تُحْمَل اللغة العربية على غيرها من اللغات المهيمنة عالميا، وإن كانت المقارنة غير متكافئة لعدة أسباب؛ فبعض المشتغلين على المسألة اللغوية يطرحون الموضوع طرحا فيه شيء من التهويل أو التضخيم وأحيانا الفزع المفرط، يظهر ذلك جليا في بعض الكتابات الحديثة، نذكر منها عملا من الأعمال المعاصرة ينتمي إلى حقل السياسة اللغوية والتخطيط، على اعتبارها فرعا من الفروع الكلاسيكية للسانيات التطبيقية، نشره د. عبد السلام المسدي، بعنوان لافت للنظر: "العرب والانتحار اللغوي"، تتخلل صفحاته كثير من الألفاظ والعبارات المثيرة للقلق والخوف على مستقبل اللغة العربية على المدى القريب والمتوسط، (ومن حذرك كمن بشرك)، أذكر منها على سبيل التمثيل: انتحار اللغة، اغتيال اللغة، صيحة الهلع، نداء الاستغاثة، حرب اللغات، محميات لغوية، وأد اللغة، هل العربية ستنقرض على

المدى المتوسط؟ التلوث اللغوي، أوهام التأويل، سيظل العرب على هامش التاريخ إن واصلوا النظر إلى المسألة اللغوية كما هم يفعلون...إلخ. ويبدو أن المؤلف أحس في لحظة ما أن عنوان الكتاب دموي أو قُلْ ثوريا نوعا ما[13]، فأصدر كتابا آخر يحمل المضمون نفسه مع شيء من التغيير في عناوين الفصول وعددها، ومضامينها، وترتيبها، ولكن هذه المرة بعنوان غير مُرْعِبْ، بل رصين وهادئ، وقد أحسن صنعا عندما أطلق عليه " الهوية العربية والأمن اللغوي".

وفي كتاب " الفجوة الرقمية، رؤية عربية لمجتمع المعرفة"[14] ضرب آخر من ضروب التهويل والتفخيم للمسألة اللغوية رغم القيمة المعرفية للكتاب وما تضمنه من معلومات حديثة، حيث يُلاحظ ذلك في ثنايا كثير من الفقرات المبثوثة في مباحث الكتاب وفصوله، ولاسيما عند حديث المؤلِفَيْن عن: فجوة التنظير للغة العربية، وراهن التنظير للغة العربية، وفجوة المعجم والمصطلح، وفجوة استخدام اللغة العربية؛ فقد تضمنت هذه العناوين معلومات مكثفة ومضغوطة، عُرضت بشكل استعراضي سريع بلغة تغلب عليها الألفاظ القلقة المتوترة الكئيبة أحيانا، نحو: فقر، تخلف، عقل حائر، تخاذل سياسي، هزال اقتصادي، الخبراء العرب هم أكثر بؤسا...إلخ، ومن ذلك مثلا قولهما:

- "... فالجميع متهمون بالفشل في الذود عن اللغة القومية، فشل المجامع في القيام بمهمتها الأساسية وهي المحافظة على العربية"، [وكأن المجامع اللغوية سلط عسكرية ينبغي أن تحافظ على اللغة العربية بالقوة والقهر!]،
- "فشل الساسة في دعم السلطة المعنوية لهذه المجامع بإصدار التشريعات التي تلزم تنفيذ القرارات التي تتخذها هذه المجامع"، [علما أن الرئيس الفرنسي ميتيران أصدر قانونا يمنع الفرنسيين من استعمال ألفاظ إنجليزية في اللغة الفرنسية ولكنه لم يصمد أمام الاستعمال، فما استحسنه الذوق والاستعمال استقر وانتشر وما استثقله تلاشى واندثر]،
- "فشل أولئك المثقفين الذين تقطعت صلتهم بتاريخهم وتراثهم، وفشل المعلمين الذين أشاعوا استخدام العامية في تقديم موادهم التعليمية"، [وهل يُصلح العطارُ ما أفسد الدهر!]،

- "وأخيرا وليس آخرا فشل اللسانيين والأكاديميين في إحداث حركة إصلاح لغوي نشطة ومستدامة... وليتنا نتذكر ما فعله السلف عندما استشعروا الخطر على اللغة العربية نتيجة لدخول اللحن"، [والسلف كما هو معلوم حرّكتهم العقيدة، والعرب إذا صدق تنبؤ ابن خلدون لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية، ثم إن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب، ولا ننسى أن العربية لغة رسمية لخمس عشرة دولة بعدما كانت لغة لأمة واحدة][15].

ومن مظاهر التهويل في الكتاب قول المؤلف: "إن العربية بين فكي رحى؛ بين عولمة تمارس عليها ضغوطا هائلة تفرض عليها أقصى درجات المرونة وسرعة الاستجابة للمتغيرات العالمية، وبين فصيل من الفكر الأصولي المتجمد يعوق تقدمها تحت دعاوى مضللة، ومفاهيم خاطئة للحفاظ على الطهارة اللغوية والأصالة الفكرية"[16]، [وهنا يحمّل المؤلفان الفكر الأصولي مسؤولية الفشل بعدما ألقى بالمسؤولية على عاتق المعلمين، والمجمعيين، واللسانيين، والمثقفين، متجاهلا طبائع الاستبداد وما ينجر عنه من تثبيط للهمم وقتل للعزائم، فكيف يستقيم الخيار اللغوي في معزل عن الخيار السياسي!؟ ].

هذه نبذة مختصرة وإشارات سريعة عن عينة من الخطابات التي ضخمت قضية أمن اللغة العربية وبعض الخطابات التي استخفت نوعا ما بالمشكلة اللغوية، ولم تأخذها مأخذ الجد.

ومن بين الأعمال الأكاديمية التي تتميز في نظري بالقصد والاعتدال في الطرح موضوع بعنوان: "معايير الحالة الصحية للغات وموقع اللغة العربية منها"، وهو يشكل الفصل الثاني من كتاب جماعي عنوانه: "انقراض اللغات وازدهارها، محاولة للفهم"؛ حيث نعثر فيه على طرح موضوعي، أشار الباحث من خلاله إلى العولمة والثورة الرقمية التي فرضت الولوج إلى العالم دون عدة لغوية، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها. ويعتقد أن وضع اللغة العربية غير مطمئن، بل مهدد أحيانا وذلك بالنظر إلى جملة من معايير الحالة الصحية للغات حسب وثيقة اليونسكو[17] نذكر أبرز معاييرها:

- معيار انتقال اللغة بين الأجيال.
- معيار عدد متحدثي اللغة مطلقا.

- معيار عامل نسبة متحدثي اللغة إلى إجمال السكان.
- عامل مواد تعليم اللغة وتعليم القراءة والكتابة بها.
- معيار موقف المؤسسات الحكومية والنظام الرسمي والتداول باللغة.
- معيار موقف أفراد المجتمع من لغتهم الخاصة، علما أن المواقف السلبية للمجتمع من لغته سبب خطير في ضمور اللغة وموتها وانتحارها.

وما تجدر الإشارة إليه حول هذه المعايير أنها متعددة، وغير موحدة، ولا يوجد حولها إجماع، فضلا عن أن الوضع اللغوي في البلدان العربية وضع مركب ومعقد وغير قار، ولا يوجد عامل واحد يمكن أن يستخدم بمفرده لتشخيص حياة لغة ومستقبلها، وهذه المعايير في حاجة ماسة إلى الاختبار ووضعها على المحك من خلال تحريات ميدانية واسعة النطاق تشمل واقع اللغة العربية ومستقبلها في الأقطار العربية[18].

## 4. اللغة العربية في المجتمع الرقمي:

في ظل الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) التي أحدثت انقلابا رهيبا في مفهوم التواصل الإنساني، وتسارعه وتطوره بمعدلات مذهلة، سواء من حيث معدل إنتاج الوثائق الإلكترونية وحجم تبادلها، أو من حيث اللغة التي تتعامل معها البرمجيات وآلات البحث عبر الإنترنت،[19] تظهر محليا وإقليميا وعالميا أنواع جديدة من التواصل، وطرائق مبتكرة للحوار والدردشة، لا سيما لدى فئة الشباب، تتأسس على نصوص مختصرة، ورسائل برقية مشفرة، تلبي الحاجة بامتياز، تُعرف برسائل **sms**، ويمكن أن نطلق عليها رسائل أو خطابات الومضة. أوجدتها ظروف البيئة الجديدة، واقترن ظهورها بظهور خدمة الهاتف المحمول أو الهواتف الذكية، فأصبحت الحاجة إليها ماسة. ومن غير المعقول أن تكون هذه النشأة، أو قل هذا الاختراع الذي تدعمه شركات كبرى دعما فنيا خاصا كشركة "جوجل" مثلا عفويا، ومن غير المعقول أن يكون هذا النوع العبقري من التواصل الفعال الذي أُطلق عليه مصطلحات متنوعة منها: "العربيزي" و"الفرانكو" و"العربتيني" و"الإنجليزي المعرب"...إلخ من صنع أناس عاديين! فهي طريقة في التواصل، يسَّرت من بين ما يسرته، استثمار تكنلوجيا المعرفة والاتصالات في خدمة اللغة ولاسيما المستوى المكتوب منها، ولكن عن أي مكتوب نتحدث! إنها نصوص مشفرة مكتوبة بلغة

هجين، وبحروف عربية أو لاتينية غير موحدة (إنجليزية، فرنسية، إسبانية، إيطالية، ألمانية... إلخ) غزت جميع الدول العربية، بل العالم كله، وفي ما يلي عينات من الحروف العربية وما يقابلها بالكتابة اللاتينية:

| | |
|---|---|
| الرقم 2 = الهمزة - (سؤال تكتب so2al ) | Bonne nuit = B8 |
| الرقم 3 = ع | Bien = B1 |
| الرقم 3' = غ | De rien = 2R |
| الرقم 4 = ش أو ذ | see you = cu |
| الرقم 5 = خ | g2g أو gtg =(I am got to go ) بمعنى: يتعين علي الذهاب. |
| الرقم 6 = ط | Assalam Alykoum = AA |
| الرقم 6' = ظ | ISA = إن شاء الله |
| الرقم 7 = ح | Contacter = كونتاكتي |
| الرقم 7' أو 5 = خ | Couper = كوبي |
| الرقم 8 = ق | Retard = روطار |
| الرقم 9 = ص | Na9ra 3lik = بمعنى نقرأ عليك |
| الرقم 9' = ض... | |

وانطلاقا من هذا النمط من التواصل الذي فرضه الواقع وغيره من الأنواع الأخرى تتشكل لدى أصحاب النظرة التشاؤمية صورة قاتمة عن مستقبل التنوع اللغوي الذي يتسارع فيه معدل الانقراض ويتنامى القلق لديهم، فيتساءل بعضهم عن مصير التنوع الثقافي قياسا على ضريبة التنوع البيئي التي خلفتها الثورة الصناعية، هل ستقضي تكنلوجيا المعلومات والاتصالات على التنوع الحضاري كما كادت تفعل تكنلوجيا الصناعة بالتنوع البيولوجي؟! ومن غير المعقول أن يكون هذا الاختراع عفويا! ومن غير المعقول أن يكون هذا النوع من التواصل من صنع أناس عاديين!

### 5. تثمين المكاسب :

لكي نكشف بموضوعية عن مدى تمدد اللغة العربية أو تقلصها، ونقوِّم مدى حضورها أو غيابها في المشهد اللساني الراهن، ونثمن المكاسب، ونشير إلى النقائص، لابد من فحصٍ للواقع، على أن يكون هذا التقويم للواقع بالنظر إلى ما كانت عليه

اللغة العربية في عصر الانحطاط والحماية العثمانية والاستعمار الأوربي، وليس بالنظر إلى ما ينبغي أن تكون عليه. وبالعودة إلى "المقدمة" لابن خلدون نعثر على وصف دقيق لحالة اللغة العربية في مراحل التقهقر والضعف والتبعية وذلك في فصل عنوانه: "في لغات أهل الأمصار" يقول فيه: "... ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناته والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسد اللسان العربي لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة، اللذين بهما حُفظ الدّين وصار ذلك مُرجِّحا لبقاء اللغة المضرية بالأمصار عربية، فلما ملك التتر والمغول بالمشرق، ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجِّح، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق، وخرسان، وبلاد فارس، وأرض الهند والسند وما وراء النهر، وبلاد الشمال، وبلاد الروم...إلخ، وأما في ممالك العراق وما وراءه، فلم يبق له أثر ولا عين، حتى أن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسه في المجالس... "[20].

والمتأمل في هذا الإشهاد، وبعد حمل بعضه على بعض يستقرئ الوضع الذي آلت إليه اللغة العربية بعد عصورها الذهبية. ومن أبرز الأفكار التي يوحي بها النص تصريحا وتلميحا، والتي تعد أساسا في مناقشة الوضع الراهن للغة العربية ما يلي:

- أن العقيدة الإسلامية مُرجِّح مركزي في حفظ اللغة العربية من الاندثار، فلولا القرآن لما بقيت اللغة العربية.
- شعور المسلمين بأن استعمال العربية من شعائر الإسلام دفعهم إلى التنازل طواعية وبالتدريج عن الأوضاع اللغوية الأخرى القائمة.
- لم تكن اللغة العربية بعد عصرها الذهبي أحسن حال مما هي عليه اليوم؛ فشتان بين الوضعين؛ وضعها في عصور النكبة حيث كادت تنقرض نطقا ورسما، ووضعها الذي انتعش في العصر الرقمي واقتصاد المعرفة.
- فكرة اللغة الواحدة لأمة واحدة مركزية في الحفاظ على النسيج الاجتماعي للأمة بغض النظر عن الثقافات التي تغذيها.
- مرونة اللغة العربية وقدرتها على المقاومة مع مرور الزمن؛ فرغم النكبات التي مرت بها والمتمثلة في (حملات المغول والتتار، والحروب الصليبية، وسياسة

التتريك، والاستعمار الأوروبي...) فإنها لم تتغير على مستوى نظامها النحوي، والتغير الذي طرأ عليها مس المستوى المعجمي تحديدا، وهي ظاهرة صحية في التنمية الطبيعية للغات التي شبهها بعضهم بالشجرة، تورق وتتساقط أوراقها باستمرار.

- دور العوامل البشرية كالاحتكاك وغلبة السلطان والتخطيط... إلخ في قهر اللغة أو خدمتها ومنحها امتيازات.

والسؤال الذي يُطرح في ضوء الواقع اللغوي الذي عاشته اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية وخرجت منه سالمة: ما مستقبل اللغات عامة والعربية على الخصوص أمام هذا الوضع العالمي الجديد؟ هل الرقمنة والتكنلوجيات الحديثة وَباءٌ ثقافي يجتاح العالم؟ وهل هي فعلا كما وصفها بعضهم سلاح ذو حدين؟ بل سكين للذبح؟ ومقبرة للغات؟ وأدوات للاغتيال والانتحار... إلخ؟

نجيب عن هذه الأسئلة بطرح مجموعة من الأسئلة الموازية لعل أبرزها: ألا نلاحظ أن الاهتمام باللغة العربية عالميا يشهد نموا مطردا ونصيبها ما انفك يتوسع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر رغم الترويج الصاعد لمفهوم الإسلام فوبيا؟ أَلَمْ توفر التكنلوجيات السابقة (ومنها الطباعة على سبيل المثال) للعربية فضاء جديدا لم تكن تتوقعه؟! ألم تقطع اللغة العربية في ظلها أشواطا معتبرة على كافة المستويات؟ ألم تتعامل اللغة العربية بشجاعة مع أوضاع أخطر وأشد (حملات المغول والتتار، والصليبيين، والاستعمار...) رغم ضروب من الحصار والمعاناة والتعطيل؟ ألا تشير التقديرات المستقبلية إلى أنها في حركة وديناميا باستمرار، وأنها مقبلة على تقدم وليس على تراجع؟ ألم تسهم هذه التكنلوجيات في تطوير طرق تدريس العربية، وزيادة انتشار الوسائل الإعلامية والتواصلية المستعمِلَة للفصحى، ومنها القنوات الأجنبية الفضائية المتنوعة الناطقة بالعربية كـ: (France 24، وBBC البريطانية، وDW الألمانية، وRT الروسية، وArabic -CGTN الصينية... إلخ؟ ألم يتزايد حضورها باستمرار على شبكة الإنترنت؟ [21]. ومهما تكن تقديرات المتشائمين والمهوّلين فإن العصرين الصناعي والرقمي، بدون مبالغة ولا تحيز، أضافا للعربية مجالات وفرصا كثيرة للانتشار والاستخدام "فأصبح لها مكانها الفسيح في الحواسيب التي أدخلت الطباعة السريعة إلى كل بيت، وحَلَّتْ معضلة الشكل، وزودت المستعمل بمصحح آلي

إملائي وبإمكانية الترجمة الفورية، وبقواميس لغوية إليكترونية سريعة التناول، كما أصبح لها مكانتها في شبكة المعلومات العالمية والمواقع التواصلية الاجتماعية والبوابات المختلفة، واستفادت العربية من ذلك أيضا في ظهور نوع جديد من الصحافة المكتوبة وهي الصحافة الإلكترونية التي أتاحت الفرصة لكل شخص أن يكتب ويدوِّن ما يشاء وقتما يشاء"[22]. كما أسهمت في "زيادة نسبة التعليم والتمدرس، وتطوير طرق تدريس العربية، وزيادة انتشار الوسائل الإعلامية والتواصلية المستعملة للفصحى، والرفع من مستوى التأليف بالعربية، ونشر الكتب، وتعليم القراءة...إلخ،"[23] وكل ذلك يشير إلى أن عصر العولمة بما قدمه من وسائط خادمة للغة العربية خلق بيئة ملائمة لصيانتها، وتوثيقها، وتعليمها وتعلمها، ووفر لها فرصا لم يكن أحد ينتظرها أو يحلم بها[24].

## 6. اللغة العربية وتخطيط المتن والمنزلة:

التخطيط اللغوي انشغال حديث النشأة نسبيا في الدراسات اللسانية والاجتماعية، يطلق عليه بعض الدارسين مصطلح: السياسة اللغوية، أو التهيئة اللسانية، أو الهندسة اللغوية، أو إدارة اللغة، أو اللسانيات السياسية. يصنف هذا الحقل المعرفي بحسب نظرة الباحث إليه؛ فتارة يصنف كفرع من فروع اللسانيات التطبيقية، وتارة أخرى يدرج في اللسانيات الاجتماعية، فيعد وليدا شرعيا وامتدادا لها بما يطرحه من انشغالات لصيقة بالسوسيو لسانيات[25]؛ كالتغير اللغوي، والانتشار اللغوي، وإحياء اللغة، والصفاء أو التطهير اللغوي، والازدواجية اللغوية، والأقليات اللغوية، والصيانة والتحديث، واللغة والجنس، والتنمية اللغوية، والهيمنة اللغوية... إلخ.

أما عن مفهوم المصطلح فقد يستخدم التخطيط اللغوي مكان السياسة اللغوية بطريقة مترادفة أحيانا، ولكن بعض الخبراء يميز بينهما فيعد "السياسة اللغوية مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن"، ويعتبر "التخطيط اللغوي هو البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسة لغوية، وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ"[26]. فالسياسة اللغوية إذا تدخل إرادي وموجه في واقع اللغة ومستقبلها، والتخطيط جهد منظم ومستمر ومدعوم سياسيا ولسانيا من قبل هيئات قيادية ومؤسسات ثقافية وعلمية ومالية. فالقرارُ سياسةٌ، ووضعهُ موضع

التنفيذ تخطيطٌ. وفي العادة تتحمل الحكومات مسؤولية إعداد برامج التخطيط، وتسهر على عمليات التنفيذ من خلال سن القوانين ووضع الدساتير لحل النزاع، وخلق التماثل الثقافي، وتشكيل الوحدة تحت مظلة واحدة. فقد تكون أحيانا مشاكل المجتمع التربوية والسياسية والاقتصادية والنهضوية بشكل عام مشكلة لغوية بالدرجة الأولى[27].

إن التخطيط اللغوي مجال ذو أهمية خاصة في الدراسات اللسانية والسوسيو لسانية الحديثة، يعمل على مستويين: مستوى المتن ويتعلق ببنية اللغة الداخلية؛ ويهتم بالمعيرة ووضع القواعد وتنمية الرصيد المعجمي وإبداع خط للغة الشفاهية؛ أو استبدال الخط المعتمد بخط جديد كما فعل الكماليون في تركيا، ومستوى المنزلة أو المكانة؛ ويهتم بعلاقة اللغة بالمحيط الجيوسياسي كأن يتعلق الأمر بكيفية خلق اللغة الوطنية الموحدة بالعودة إلى الأشكال اللهجية المتنوعة؛ هل يتم اختيار شكل لهجي معين؟ وعلى أي أساس؟ أو يُخلق شكل جديد ينتقى من مختلف اللهجات القائمة؟ أو تُختار اللغة العالمية الإمبريالية الواسعة الانتشار لتفادي أزمة الاختيار بين لغتين وطنيتين متنافستين أو أكثر كاللغة الإنجليزية في الهند مثلا. فالمظهران اللساني تخطيط المتن (التخطيط الداخلي) والاجتماعي تخطيط المنزلة (التخطيط الخارجي) متلازمان، ولا يمكن الفصل بينهما[28].

وللإشارة فإن تاريخ اللغات لاسيما الحديثة منها حافل بنماذج حية من التخطيط اللغوي الإرادي والعفوي كإعداد الكتابة المعيارية، ومعيرة النحو، وجمع المدونات؛ وكثير من الأعمال التي شارك في إنجازها علماء ينتمون إلى حقول معرفية متنوعة يمكن إدراجها في إطار السياسة اللغوية والتخطيط؛ فمصحف عثمان رضي الله عنه، وجمع المدونة اللغوية التي اشتغل عليها النحاة واستنبطوا منها القواعد والكليات التي تحكم نظام اللغة العربية واستثمرها اللغويون في إعداد أنواع من المعاجم اللغوية والمتخصصة، وإنشاء بيت الحكمة لنقل العلوم والآداب وترجمتها، وصك النقود وإثبات الخط العربي عليها، وتحديث الكتابة العربية، ومعيرتها بعدما كانت خالية من نقاط الإعجام، واختراع الحركات الإعرابية، وإنشاء المجامع اللغوية، والمجالس العليا للغة العربية...إلخ، كل هذه الأعمال وغيرها هي

ضرب من ضروب السياسة والتخطيط الذي يتعلق بالمتن (البنية الداخلية للغة)، والمنزلة (أي مكانة اللغة محليا وإقليميا وعالميا).

ورغم أن نصيب اللغة العربية ما انفك يتوسع أمام تعاظم دور اللغات الإمبريالية المهيمنة، فإن واقع استعمالها في زماننا الراهن يشير إلى أنها مريضة في عقر دارها، ومرضها كبير وأكبر؛ فاللهجات المزاحمة واللغات الأجنبية المنافسة هي مرضها الكبير. وأما مرضها الأكبر فيتمثل في نظري في السياسات والمواقف والسلوكات؛ فنحن أمة تبدو بلا مشروع لغوي مقارنة بالأمم المروجة للغاتها. ومشاريعنا غالبا نظرية أو رمزية أو شعبية أو ارتجالية. وتجاربنا اللغوية قصيرة النفس ولا تقاوم!! فكيف نتحدث عن منظومة معرفية في غياب المنظومة الرقمية؟ وكيف نتحدث عن المنظومة الرقمية في غياب منظومات أهم في سلسلة الأولويات كالغذاء والسكن والصحة؟! وكيف نتحدث عن المنظومات الأهم في غياب المنظومة التعليمية والتربوية التي تعد إكسير الحياة؟! يبدو أن السعي لتحقيق هذه المنظومات جميعها في غياب المنظومة اللغوية ضرب من المجازفة، فقد يكون الفشل النهضوي فشلا لغويا بالدرجة الأولى. ويثبت الواقع أن بعض الدول الإفريقية التي ضحت بلغاتها المحلية واختارت اللغات الأجنبية وفي اعتقادها أن اللغات القوية تختصر الطريق نحو النفاذ إلى المعرفة واستيعابها وتوظيفها وتوليد المعرفة الجديدة لم تحقق تقدما، بل دفعت ضريبة باهظة أدت إلى مزيد من التخلف[29].

إن ترقية اللغة العربية، والسمو بها لتصبح لغة الحياة في زماننا الراهن مهمة صعبة ومعقدة ولكنها ليست مستحيلة، فالعربية في حاجة ماسة إلى دعاية وترويج وأسلمة. وإن جميع الحلول التي يمكن أن تقترح لتغيير وضع اللغة ومكانتها سيكون عديم الجدوى ما لم يعتمد سياسة لغوية وتخطيطا شاملين، يؤسسان على بحوث جماعية رصينة وجادة ومستمرة، ويرتكزان على عدة ضخمة من الوسائل المادية والبشرية؛ فترقية استعمال اللغة العربية والتمكين لها في كافة المجالات الحيوية، وعلى رأسها التربية والتعليم مشروع وطني ذو أبعاد قومية، يحتاج إلى سياسة راشدة تنطلق من استراتيجية شاملة تصورا وتخطيطا وتنفيذا وتقويما؛ تحدد المرامي والغايات، وتضع التصورات، وتوفر الأدوات والوسائل، ولا تتوقف عن المراجعة والتقويم، وتستمر في التحسين والتطوير، مع ضرورة مراعاة الحاجات الاجتماعية،

وأوضاعنا الوطنية والقومية، وظروفنا التاريخية، والتحولات المعرفية والسياسية والاقتصادية والثقافية المحلية والإقليمية والعالمية. ومن المؤكد أن كثيرا من الأسئلة التي تُطرح حول "المسألة اللغوية" لا يستطيع اللساني حسمها، ولا مدرس العربية علاجها، فالمسؤولية مسؤولية الجميع، وكل معلم في الواقع ينبغي أن يكون معلما للغة العربية!

وعند التأمل في واقع اللغة العربية في بعض القطاعات الحيوية لاسيما قطاع التربية والتعليم، وبالنظر إلى مراحل التعليم العام بالدول العربية عموما والجزائر على وجه الخصوص، ومقارنته بوضعها في العقود الأخيرة من القرن العشرين أي عقود ما بعد الاستقلال كيف كانت؟ وكيف أصبحت؟ يمكن الاطمئنان شيئا ما إلى وضع اللغة العربية عموما وما حققته من مكاسب؛ فبعض القائمين على ميدان التربية والتعليم يدركون أن التحكم الجيد في المعارف والمهارات والمواد التعليمية المختلفة يستلزم التحكم في القدرة اللغوية، لأن ضعف الكفاية اللغوية يُعد من أهم أسباب الفشل في التحصيل المعرفي بشكل عام، وغالبا ما يرتبط التفوق المعرفي والمهاري بالتفوق في القدرة اللغوية مشافهة وتحريرا. وما نشهده من تحسين وتطوير مستمرين للبرامج عامة، ومناهج تعليم اللغة العربية على وجه الخصوص، ومن تنوع في الكتب التعليمية كما وكيفا في جميع المراحل والمستويات، وما يُبث للطفل العربي في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية من أشرطة ورسوم متحركة، وأفلام ناطقة بالفصحى الحديثة، وما يُنشر على الشبكة العنكبوتية من أخبار علمية وفكرية وثقافية، وما تقوم به بعض الجامعات العربية وبخاصة الخليجية منهاي من ترويج ودعاية للعربية في العالم عن طريق إنشاء المراكز التعليمية والإنفاق عليها... إلخ عبارة عن ظواهر صحية وقائية وعلاجية تبين جانبا من جوانب السياسة اللغوية وتخطيط المنزلة والمكانة لدى بعض المسؤولين الغيورين على وضع اللغة العربية ومستقبلها، ولكنها لا تشفي الغليل، فالحاجة ماسة إلى العمل الجماعي المؤسساتي المنظم، وإلى مزيد من الوعي والعمل والدعاية والتبشير.

**خاتمة:**

من أبرز النتائج التي أفضت إليها دراستنا لموضوع «أمن اللغة العربية بين التهويل والتهوين، مقاربة في ضوء التخطيط اللغوي" ومناقشته مناقشة هادئة دون تحيز

للمنحى التهويلي أو التهويني ما يلي:

1- هناك فرق واضح بين لغة قوية منتجة محظوظة سياسيا واقتصاديا وذات مكانة وامتياز وأرصدة، وتَعَلُّمُها يُعَدُّ حاجة ملحة في عصر التواصل البشري الميسر، وبين لغة ضعيفة مستهلِكَة، وغالبا مقهورة، فالمقارنة غير متكافئة أصلا.

2- إن الفشل النهضوي غالبا فشل لغوي في الأساس، فلا يوجد دولة متقدمة واحدة تدَّرس التلاميذ في مراحل التعليم العام والطلاب في الجامعة باللغة الأجنبية.

3- اللغة العربية كغيرها من اللغات الأخرى قابلة للتمدد والانكماش، تتمدد بالاستعمال، وتتقلص بالإهمال (علما أن العضو الذي لا يعمل يضمر). ومن المؤكد أن التخطيط للعربية الحية متنا ومنزلة مسألة مركزية في الوقاية والعلاج، واللغة التي لا تُخَطِّطُ يُخَطَطُ لها.

4- الطباعة والإنترنت والهواتف الذكية والتكنلوجيات الحديثة عموما غنائم سلم، لسنا مخيرين بل نحن مجبرون على الاستفادة منها واستثمارها بذكاء في صيانة اللغة العربية وترقيتها.

5- وضع اللغة العربية لا يفتقر إلى الموارد الاقتصادية والبشرية بقدر ما يفتقد إلى السياسات والمواقف والقرارات الوظيفية لا الرمزية، فهي التي تؤدي إلى التغيير، وخير مثال على ذلك إحياء اللغة العبرية، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية، وإدراج العربية في هيئة الأمم المتحدة، ومعيرة الأمازيغية في بلدان المغرب العربي، وكلها أمثلة حية عن تاريخ المواقف والسياسات.

6- الأزمة كما يقر الخبراء أزمة مجتمع (سياسة وتخطيطا وتنفيذا وتقويما) لا أزمة لغة، ومن المعلوم بالضرورة أن مستقبل العربية بيد أصحابها.

## الإحالات والهوامش:

[1] عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان 2013، ص 17.

[2] عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2011، ص ص13- 14.

[3] محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، اللغة سلسلة دفاتر فلسفية، ط4، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب 2005، ص ص17 - 19.

[4] ن. ي. كولنج، الموسوعة اللغوية، تر: محي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، مج3، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 1421هـ، ص 843.

[5] عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، ص ص 15- 16.

[6] الجمعي بولعراس، معايير الحالة الصحية للغات وموقع اللغة العربية منها، ضمن كتاب انقراض اللغات وازدهارها محاولة للفهم، مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، 1436هـ، ص70.

[7] الجمعي بولعراس، معايير الحالة الصحية للغات وموقع اللغة العربية منها، ضمن كتاب انقراض اللغات وازدهارها محاولة للفهم، ص 69.

[8] إثارة الأسئلة أحيانا أفضل من الإجابة عنها، والإجابة عن هذه التساؤلات تحتاج إلى فريق من الباحثين وتحريات واسعة النطاق في البلدان العربية.

[9] روبيرت فليبسن، الهيمنة اللغوية، تر: سعد الحشاش، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 2007، ص 46.

[10] تشير القوة الذاتية إلى الكيفية التي تباع بها اللغة الإنجليزية (بمعنى أنها سلعة مدرة للثروة) في العالم، وفاعلية أدواتها الموظفة في عمليات الدعاية والترويج. انظر المرجع السابق، ص991- 993.

[11] انظر فصل "اللغة والسياسة" في كتاب عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، وكتاب الهوية العربية والأمن اللغوي (فصل من ينهض بالعربية؟).

[12] خمس عشرة سنة من النضال في خدمة اللغة العربية هو عنوان كتاب ألفه الكاتب الجزائري "عثمان سعدي" يتضمن وضع اللغة العربية في الجزائر.

[13] فعلا فإن قراءته تخلف كآبة عميقة لدى كل غيور على اللغة العربية.

[14] نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2005.

[15] المرجع نفسه، ص 364.

[16] المرجع نفسه، ص 311.

[17] انظر محمود بن عبد الله المحمود، انقراض اللغات وازدهارها محاولة للفهم، مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، ص 107.

[18] لمزيد من المعلومات انظر المرجع نفسه، ص88 وما بعدها.

[19] نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، ص57 و164.

[20] ابن خلدون، المقدمة، ج2، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص458.

[21] عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان 2013، ص 174.

[22] المرجع نفسه، ص ص 168 - 174.

[23] المرجع نفسه، ص 174.

* من الأنباء اللافتة للنظر حول اللغة العربية صدور تقرير عن المجلس البريطاني (نوفمبر 2013) يحدد لغات المستقبل بالنسبة لبريطانيا والبريطانيين بالنظر إلى المؤشرات الاقتصادية والتجارية والتربوية والدبلوماسية والأمنية... حظيت فيه اللغة العربية بالمرتبة الثانية في الأولوية بعد اللغة الإسبانية، وللإشارة فإن هذا النوع من المعلومات في نظري لا ينبغي أن يؤسس عليه المستقبل الأمني للغة العربية، ولكن يمكن الاستئناس به. انظر محمد مرزوق وآخرون، السياسة اللغوية العربية والبيئة والبقاء، ص ص8-9.

* إن تجاهل البعد الاجتماعي في دراسة الظاهرة اللغوية وفهمها يؤدي إلى خسارة معتبرة في حقل اللسانيات العلمية النظرية، ومنهم من يبالغ عندما يقر أنه لا وجود للسانيات إلا اللسانيات الاجتماعية، فهي، في منظور بعضهم، اللسانيات بامتياز، والحجة أنه يتعذر على العامل في الحقل اللساني المحافظة على نقاء اللسانيات النظرية المحضة.

[24] لمزيد من المؤشرات الباعثة على التفاؤل انظر: عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان 2013، ص ص 166-174.

[25] فلوريان كولماس، دليل السوسيو لسانيات، ط1، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهيبي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص ص932 - 938.

[26] انظر لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ص219-221. وفلوريان كولماس، دليل السوسيو لسانيات، الفصل السابع والعشرون الموسوم بـ: "التخطيط اللغوي والإصلاح اللغوي"، ص 934.

[27] انظر، فلوريان كولماس، دليل السوسيو لسانيات، ص ص 934-938. ولويس كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ص 221-225.

[28] لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص 390.

[29] نبيل علي ونادية حجازي، الفجوة الرقمية، رؤية عربية لمجتمع المعرفة، ص 370.

## قائمة المصادر و المراجع:


1- ابن خلدون، المقدمة، ج2، الدار التونسية للنشر- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

2- بن عبد الله المحمود حمود، انقراض اللغات وازدهارها محاولة للفهم، مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية.

3- بولعراس الجمعي، معايير الحالة الصحية للغات وموقع اللغة العربية منها، ضمن كتاب، انقراض اللغات وازدهارها محاولة للفهم، مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، 1436هـ

4- سبيلا محمد وبن عبد العالي عبد السلام، اللغة سلسلة دفاتر فلسفية، ط4، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

5- علي نبيل وحجازي نادية، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2005.

6- فليبسن روبيرت، الهيمنة اللغوية، تر: سعد الحشاش، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 2007.

7- كالفي جان لويس، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.

8- كولماس فلوريان، دليل السوسيو لسانيات، ط1، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهيبي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

9- محمد مرزوق وآخرون، السياسة اللغوية العربية والبيئة والبقاء. ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الشارقة، الإمارات العربية، 2016.

10- المسدي عبد السلام، العرب والانتحار اللغوي، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2011.

11- ن. ي. كولنج، الموسوعة اللغوية، تر: محي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، المجلد 3، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 1421هـ

12- الودغيري عبد العلي، اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2013.

# الممارسة التعليمية للنحو في مرحلة التعليم الإكمالي
# عناصر تفكير[1]

**Grammar Practice in College Educational Stage**

**Elements of Reflection**

**لـ: إريك باجول**

**ترجمة: الطاهر لوصيف**

جامعة الجزائر 2- الجزائر

taharloucif63@gmail.com

**الملخص:**

يتناول المقال عرضا لأهم العقبات التي يلاقيها معلمو النحو في التعليم الإكمالي الفرنسي وذلك من حيث الخلفيات النظرية النحوية التي تقف وراء الممارسة التعليمية التي تتجلى في الكتب المدرسية والطرائق التعليمية التي لم تستطع اقتراح تعليم للنحو مؤسس فعلا على طريقة استقرائية تزيل العوائق بسبب تصورها للنحو وللغة. ويتم تقديم النحو بكيفية ينفصل فيها عن باقي النشاطات اللغوية على حساب الاهتمام بالنصوص وبمقتضيات حالات التخاطب الفعلي اليومي.

**الكلمات المفتاحية:** الخطاب، النحو المدرسي، النصوص، تدريس النحو، التلفظ.

**Abstract:**

This paper deals with the main obstacles faced by grammar teachers in the French college, mainly in terms of the grammatical theoretical background that underlie the educational practice. The textbooks and teaching methods have failed to propose a solid foundation for grammar teaching based on an inductive approach. Thus, grammar is presented in a way that is disconnected from other linguistic activities, neglecting the focus on texts and the requirements of daily communicative situations.

**Keywords:** Discourse, school grammar, texts, teaching grammar, Enunciation.

أعتبر هذه المداخلة شاهدا على الأهمية التي أدلي بها حول مهنتي وشاهدا على الصعوبات التي أجدها في ربط ما تعلمته (في الجامعة وفي IUFM) من جهة، وما يجب أن أعلمه من جهة أخرى، وشاهدا بمعنى ما على "التفكير النحوي اليوم" مثلما يدل على ذلك عنوان هذه الطاولة المستديرة، وعلى تفكير يستمد أصوله من التجربة، ويسعى إلى فهم أسباب الصعوبات والنجاحات التي توجد في ممارسة تعليمية ما، يوما بعد يوم، مع تلاميذ التعليم الإكمالي.

سنتساءل أولا عن الخلفيات النظرية الكامنة خلف تلك الممارسة التي يطغى عليها التبرم الظاهر في استعمال الكتب المدرسية الحديثة المتعلقة بالفرنسية في المرحلة المتوسطة، مع بقائنا متمسكين بالكلمات الثلاث الملزمة في الفرنسية اليوم التي هي: الاستقراء (induction)، وإزالة العوائق أو مظاهر التفكك والتشرذم (décloisonnement)، والخطاب (discours)، هذه الكلمات التي يجب أن نراهن عليها، لأنه لا يجب أن نسرع في الحكم على المناهج.

لقد حاولت في مكان آخر[2] أن أحلل بالتفصيل أسباب التبرم الحاصل من خلال استعمال الكتب المدرسية، واعتقدت أني فهمت بأن هذه الكتب إذا لم تتمكن من اقتراح تعليم للنحو مؤسس فعلا على طريقة استقرائية وعلى إزالة العوائق فإن هذا عائد إلى تصورها للنحو وبصفة أوسع إلى تصورها للغة.

وبطبيعة الحال، غالبا ما يكون النحو التعليمي ناتجا عن تخييلات نحوية (fictions grammaticales): مثال ذلك بعض التوافق(isomorphie) بين مستويات مختلفة لتحديد أنواع الجمل (حيث يرتبط كل فعْل لغوي مباشر بتركيب وبتنغيم (intonation) وبعلامة وقف (ponctuation) مع بعض التنويعات التي لها نفس استعمال هذا المستوى اللغوي أو ذاك)، في حين أنه لا يوجد ذلك التوافق (isomorphie)، كما أن الطبيعة الاختبارية (empirique) للخطاب تجعله موضع شك دوما. وفي النهاية فإن إستراتيجية مؤلفي النحو المدرسي تعاني من تبسيط مبالغ فيه يلقي باللائمة دوما على ما قيل. غير أن التلميذ ليس بليدا: فهو يعرف جيدا بأن ما يقترح عليه ليفعله لا يتماشى مع ما تحدثه الخطابات. إن هذه الأولية (primat) لنحو اللغة تمنحه آثارا بيداغوجية وتعليمية: فهو على عكس الظاهر يمنع من تبني طريقة استقرائية وممارسة تعليم مزيل للانفصال (décloisonné) وهكذا فإن

الملاحظة تنحصر في مجرد كشف بسيط، وتفترض الأسئلة معرفة ما سيتم اكتشافه، ومن ثم فهي لا تتعلق إلا بعناصر من النص مطابقة للمعارف المحصلة (établis savoirs) فلا يحفل بالخطابات بينما تعامل النصوص كمبررات (prétextes). وبالموازاة مع ذلك، تنحصر محاولة تجاوز ظاهرة الانفصال والتشرذم (décloisonnement) من خلال عملية ربط مبرر بين مختلف الميادين أو الأنشطة التعليمية الفرعية (sous disciplines) للفرنسية (القراءة، الكتابة، المنطوق (oral)، وأدوات اللغة). وهكذا يقدم النحو منفردا، ويتم التدرج النحوي بمعزل عن مجموعة النصوص أو الآثار المقترحة على التلاميذ، أي خارج النماذج الخطابية الغنية التي تجمع بين الأهداف النصية والثقافية، وذلك بالتمكن من اللغة على حساب الاهتمام الممنوح للخطابات، لاسيما أنها تصنع نظام اللغة (بنية اللهجة ) (idiome) التي جرى تناولها من خلال تقسيماتها الما قبل السوسرية (أي مفرداتها وصرفها وتركيبها) في المقام الأول على حساب الخطاب.

إن هذا الانزعاج ما هو إلا علامة على انزعاج أعم من أزمة تتعلق بتدريس النحو وليس بالنحو نفسه من خلال أسئلة متكررة يصوغها عدد من الأساتذة الشباب تتعلق بقيمته وضرورته بالنظر إلى الصعوبات التي يلاقونها في تبليغه. وتستمد هذه الأزمة جذورها من أربعة عناصر يمكن أن نعتبرها نقاطا مغفلة (point aveugles) في الخطاب تخص تعليم النحو مع أنه كان من الواجب أن تعتبر مقدمات في تصوره.

أولى هذه النقاط هي خصوصية الموضوع المدرَّس، الذي لا نبالي به كثيرا، إذ يتعلق الأمر باللغة، أي بالنشاط اللغوي (سواء تعلق الأمر بالقراءة أو بالكتابة أو بالكلام أو بالكلام عن..) حيث يكون التلميذ معنيا مباشرة باعتباره فردا متكلما. وفي العمق فإن التصور نفسه لهذا الموضوع، أو بالأحرى نظرية اللغة التي نملكها، هي التي تحدد الكيفية التي بواسطتها نضع التلاميذ - والمعلم - في قلب العمل والمعرفة المتعلقة بما يُدْرس.

أما النقطة الثانية فتتعلق بتعريف الأهداف -التي يجب أن تُطَّبق- غير أن الأهداف التي حددت للنحو يبدو أنها نست أن تأخذ في الحسبان بعض الملاحظات. فمن جهة، هناك ما يتعلق بصعوبة طرحها خاصة مثلما يرى د. ليمان في ختام

مقال حديث له[3] إذ يقول: " نطلب [من النحو] أن يمكن التلميذ من معرفة كيفية عمل لغته (fonctionnement de sa langue) لكي يفهم ما يقال ويكتب ولكي يحسن التعبير. والمشكل هو أننا [...] لا نملك هنا أوصافا وتفسيرات أساسية لتطبيق المنهاج". ومن جهة أخرى نسجل ما يتعلق بالريبة (incertitude) التي عرضها "ب. شارودو" في مقدمة مقال آخر[4] له، كمساهمة منه في الرهان التربوي: "لسنا أبدا متأكدين بأن المعرفة الجيدة لعمل النظام اللغوي تحسّن مهارتي الكلام والكتابة (savoir parler et écrire) وليس من الضروري معرفة تحليل اللغة حتى نحسن التعبير"، أو كذلك هذه الملاحظة العميقة التي يذكرنا بها "ج. ي بولوك"[5]: "إن اكتساب اللغة الأم يتم عند كل إنسان بسرعة، بدون جهد وبصفة غير واعية" ويضيف: "وهي تختلف عن تعلم اللسانيات الذي يتطلب بجد تكرارا وتصحيحات وتمارين تذكير، تبين نتائجها الفروق الواضحة بين الأفراد".

أما العنصر الثالث فيتعلق بالمنزلة التي يضع النحوُ التلميذ فيها؛ حيث يطرح التمكن من اللغة كشرط أول ضروري للاستماع إلى الخطابات، وينسى النحو الضريبة المعرفية (coût cognitif) المرتبطة بتعلم المصطلحات النحوية. غير أنه ليس من المؤكد أن معرفة تلك المصطلحات واستعمالها يكونان شرطا ضروريا وكافيا للتفكير في نظام اللغة وفيما نكون بصدد فعله حين نتكلم. وفيما يتعلق بالدليل اللغوي يطرح "إ. بنفينيست" فكرة تذهب إلى أن المتكلم باستطاعته أن يباشر "ببداية تحليل لساني انطلاقا من الجملة، وفي ممارسة الخطاب: (l'exercice du discours) خاصة حينما يجري ذلك بشكل عفوي"، كلما ألف النظام اللغوي، مفهومًا تجريبيًا للدليل، يمكننا أن نعرّفه في الجملة على هذا النحو: الدليل هو الوحدة الدنيا للجملة، وبالإمكان التعرف عليه باعتباره عنصرا مطابقا: (identique) في محيط مختلف؛ أو بالإمكان استبداله بوحدة مختلفة في محيط مطابق".

والعنصر الرابع هو حالة التضايق (inconfort) الذي يلحق بالمعلم حيث يجد صعوبة (للأسباب التي ذكرناها آنفا) في أن يأخذ مختلف مكونات مادته مجتمعة: اللغة والأدب، اللغة والخطابات (بصيغة الجمع لا المفرد).

ولذلك فإن البقاء ضمن دائرة الانتماء إلى تدريس النحو يعتبر تحديا ومهمة نضالية في سياق غالبا ما يأبى أن يستسلم ويركز على الصعوبات أو يتشبث بأوضاع تقليدية تعتبر ملجأ له (وهو الركون إلى العادة)، مما يسمح له بنسيان الطموحات المرتبطة بالاستقراء وبإزالة مظاهر التشتت والانفصال (décloisonnement).

إن الخروج من هذا الوضع هو محاولة للخروج من فكرة تحويل النحو إلى أداة (instrumentalisation de la grammaire) كما أكد ذلك "هوراس (Horace) في مؤلفه: الفن الشعري (art poétique). وفي هذا النقاش فأنا لا أعطي نصيحة لأحد، ولكني أذكر فقط ببضع عناصر متأتية من "نصيحة داخلية" تحمل في مجموعها عدة محاولات في الممارسة وبعض الأفكار على وجه التقريب ليس إلا. وعليه أقترح أن ننطلق من أربعة اقتراحات:

فأول هذه الاقتراحات هو تحبيذ فهم كيفية عمل مدونة من المصطلحات وليس تعليمها. ولكن أي كيفية عمل؟ لأن اللسان (langage) هو لغة وخطاب في الوقت نفسه.

وهنا يأتي الاقتراح الثاني، إذ يجب الانطلاق من معطى لساني غالبا ما يجري تناسيه: ألا وهو أسبقية الخطاب، أو الكلام (كما يراه دو سوسير)، وهذا ما يذكر به بنفنيست بقوة قائلا: "في الخطاب المحقق بواسطة الجمل تتشكل اللغة وتتجسد (se forme et se configure) وهنا يبدأ اللسان (langage)". وهذا ما يقتضي اختيار الخطاب، والانطلاق من المبدأ التجريبي للخطابات (l'empirique des discours). لأن اللغة ما هي إلا ثانوية (seconde) في بعدها المزدوج كمعطى اجتماعي وخيالي (de fiction) بالمفهوم النبيل للكلمة من نسج خيال اللساني. ومع أنها عنصر يفرض نفسه علينا، فإن الأمر يتعلق قبل كل شيء بامتلاكها. وفي ذلك الامتلاك يتبدى أصل اللغة الثانوي من قبل كل واحد وفي كل وقت.

ويؤول ذلك الاقتراح الثاني إلى اقتراح ثالث: إذ إن المفاهيم اللسانية التي يجب تحبيذها هي تلك التي تسمح لنا بحيازة ما نفعله وفهمه عندما نتكلم وحينما نشغل اللغة. وبكلمة واحدة: فهم كيفية العمل الخاصة بهذا الخطاب أو ذاك، مما يقتضي القيام باختيار دراسة لسانية تسمح بتناول اللغة كدلالة وليس كمعطى سيميائي (sémiotique) (نحن نأخذ هذا التفريق من بنفينيست). غير أن ذلك يعود إلى اعتبار الخطاب نفسه نظاما وأثرًا ناتجا عن نزعة ذاتية (subjectivité)، ينشأ في

قلب اللغة ذاتها. ومن هنا يجب عدم الاكتراث بأية مقاربة تعتبر بصفة مسبقة اللسان (langage) أداة -خاصة أداة تواصل- لأن هذا ما هو إلا سمة ثانوية للكلام.

وهذا ما يسمح إذن -ويمكن اعتبار هذا هو الاقتراح الرابع- بتوحيد الأهداف النصية والثقافية، من خلال الآثار الإبداعية وبواسطتها، شريطة أن يصحب ذلك التفكير في اللغة وفي نظرية اللغة.

إن الرهان الذي تتضمنه هذه الاقتراحات يتطلب الوثوق في قوة اللغة (باعتبارها خطابا)، وفي القوة الشعرية الموجودة في كل نص؛ ويتطلب أيضا الإيمان بأفضلية الاستماع إلى النصوص في خصوصيتها وتاريخيتها.

يحدد هذا الرهان من حيث بعده العميق أهمية الأسئلة التي تبقى مُلحَّة من قبيل: ما مبلغ القدر الذي يمكن تعليمه (enseignable)؟ وما مبلغ القدر الملاحظ (observable)؟ وما مبلغ القدر الذي يمكن تنظيمه (المنتَظِم: systématisable)؟ وتجب المجازفة من أجل التأكيد على أن الملاحظ في هذا الإطار هو الأمر الخاص بأثر إبداعي ما وبخطاب ما. وحتى يحقق نشاط الملاحظة هدفه فإن ما يجب أن نلاحظه هو ما يضع هذا الأثر أو ذاك في المقدمة ويحوله إلى قيمة. ويرتبط المنتظم بالنظام في الخطاب، فكل خطاب يخترع بعده الاستبدالي وبعده التركيبي الخاص به، أي بصفة دقيقة ما تعتبره السيميائية من مجال ما لا ينتظم في اللغة. وبالمقابل، فإن مشكل وحدات الإحالة يُطرح بشكل آخر، لأنه بمجرد اختيار مستوى التحليل أي مستوى اللغة باعتبارها "دلالة" فإن الجملة تتحرر من الخيالات النحوية (fictions grammaticales) وتتحول من حيث هي وحدة حاملة للمعنى وللإحالة في الوقت نفسه إلى خطاب مثل "النص" الذي لا يوجد له نموذج مسبق ولكنه يبَتدع بعيدا عن الصنعة البلاغية. فالخطاب وحده يفرض نفسه كوحدة إحالة. وهذه ليست سوى مسألة مرتبطة بسلم الملاحظات (échelle d'observation) وما يمكن أن نعلمه هو أن نكون حساسين تجاه هذا الملاحظ (observable) وهذا الذي يمكن تنظيمه (المنتظم: systématisable).

وفي هذه الظروف، فإن الربط (articulation) بين القراءة والكتابة عمل تحصل منه فائدة من حيث أنه يستدعي النظر من منطلق مفهوم الذات اللغوية: (sujet langagier) فالقراءة تتوجه إلى اكتشاف الذات (sujet) في الأثر (œuvre) الذي يرتبط

به ضمن نشاط إعادة تلفظ (ré-énonciation)، أما الكتابة فهي نشاط تلفظ (énonciation) تظهر فيه نزعة ذاتية في كل مستويات اللغة. وعليه فالذي ينبغي اعتماده هو إيجاد نشاطات يمكن فيها للكتابة أن تقرأ وللقراءة أن تكتب، وينظر إلى علاقة الربط بينهما ضمن ما يجري تشكيله عبر تعدد القراءات والمحتويات التدريسية من حيث هي مدونة تعليمية -بالمعنى الأكثر حيوية لهذه الكلمة- حيث يضيف كل ما حصله، بعد السماع -بكل حرية- من خلال استعادة تعاطيه لما قرأه عبر الانخراط في كتابة إبداعية.

ولا يكون ذلك كله إلاّ بطريقة استقرائية نستقصي مسار تدرجها عبر كل نشاط تعلمي، وهو تدرج قد يكون أقل خطية، ولكنه يعترف بالتفاعل بين المستويات المختلفة بدءًا من المستوى الصرفي وانتهاء بالمستوى التلفظي. ويكمن التحدي بصفة أقل في إرساء آلية التدرج مقارنة بعملية بناء [صياغة] النشاطات التي تتيح المبادرة للتساؤلات وتسمح للتلميذ بأن يبني معارفه تدريجيا من خلال تركه يكتب - ويشكلن (formaliser)[ أي يصيغ بشكل صوري] وفق مستواه نتيجة ما توصل إليه. وتدخل في هذه النشاطات كل مكونات المادة الدراسية وذلك لكي تبقى معارف التلميذ في مستوى المركب (complexe) دون أن يغرق في مستوى المعقّد (compliqué).

## الإحالات والهوامش:

[1] العنوان الأصلي للمقال هو: "Pratique de la grammaire au collège: Eléments de réflexion" لـ : إريك باجول. ونشر في Le français aujourd'hui في سنة 2003، العدد 141، الصفحات من 62 إلى 66

[2] Barjolle Éric, Une gêne pratique à l'égard des manuels ou la phrase en mal de discours, Le Français aujourd'hui ; n° 135, 2001.

[3] Leeman D, Quand les formes informent : de la grammaire à la sémantique, Le Français aujourd'hui : n°135, 2001.

[4] Charaubeau P, De l'enseignement d'une grammaire du sens, Le Français aujourd'hui : n° 135, 2001.

[5] Pollok J. -Y, Langage et cognitionP U F : col. «Psychologie et sciences de la pensée», Paris, 1997.

## قائمة المراجع:


1- Barjolle, Éric, Une gêne pratique à l'égard des manuels ou la phrase en mal de discours, Le Français aujourd'hui ; n° 135, 2001.

2- Barjolle, Éric, Pratique de la grammaire au collège : Eléments de réflexion Le français aujourd'hui, V2 , n° 141, 2003.

3- Charaubeau, P., De l'enseignement d'une grammaire du sens, Le Français aujourd'hui : n° 135, 2001.

4- Leeman, D., Quand les formes informent : de la grammaire à la sémantique, Le Français aujourd'hui : n°135, 2001.

5- Pollok, J. -Y, Langage et cognitionP U F : col. « Psychologie et sciences de la pensée », Paris, 1997.

# ملامح لسانية في مقامات الذاكرة المنسية لحبيب مونسي

## Linguistic Features in the « Makamāt Aẓākira al-Mansiyya » of Habib MOUNSI

**صفية مطهري**
جامعة وهران 1 - وهران
smetahri@gmail.com

**الملخص:**
إن البنية النصية للأسلوب الروائي ترفدها عدة روافد لسانية لتجعل منها وحدة متكاملة ذات دلالات متنوعة بتنوع أحداثها وفواعلها ومداخيلها وتفاعل هذه العناصر مع بعضها لتنتج نصا ذا حمولة دلالية متميزة.
إن المادة الحكائية في "مقامات الذاكرة المنسية" تمتاز بخصائص لسانية بينت نسيجها الحكائي، إذ استطاع الكاتب أن يوظف جملة من الأدوات اللسانية جعلت من المادة الحكائية كلا متكاملا، وبينت خصوصية المبدع في تقديم هذه المادة.
لقد وظف صاحب "مقامات الذاكرة المنسية" أدوات لسانية جعلت من النص نسيجا يحمل في داخله معاناة لا نلمسها إلا في مثل هذه الأعمال.
إن بحثي هذا هو قراءة أحاول من خلالها استكناه المضامين الأساسية للنص استنادا إلى أهمية الفواعل فيه، وبقية المقامات التي وظفها الكاتب لتمرير مضامينه الحكائية، وهذا بدراسة الأدوات اللسانية في "مقامات الذاكرة المنسية" لـ"حبيب مونسي"، وكيفية توظيفه لهذه الأدوات لأستخلص في الأخير جملة من النتائج.

**الكلمات المفتاحية:** ملامح لسانية ؛ الذاكرة المنسية ؛ بنية النص الروائي ؛ النسيج الحكائي ؛ أدوات لسانية.

**Abstract:**

The textual structure of the novelistic style draws its essence from several linguistic sources to form a single entity that carries within it different elements, each one having its own events and its own actors. The result of the interaction of all these elements is a text with a unique semantic charge. The narrative material in "Makamāt Aẓākira al-Mansiyya" is characterized by linguistic elements that weave its narrative design. The author has used several linguistic procedures that have made the narrative material a complete whole. The author of "Makamāt Aẓākira al-Mansiyya" has used linguistic tools that have resulted in a text that paints a suffering that can only be felt in this kind of work.

We aim throughout this work to reveal the main points of the text, while emphasizing the importance of the verbal subject as well as the other "Makamāt" used by the author to convey his narrative contents. We have based our work on the study of the linguistic features of the "Makamāt Aẓākira al-Mansiyya" of Habib MOUNSI and the way in which he used these features to reach a number of results.

**Keywords:** Linguistic features, Aẓākira al-Mansiyya, text-narrative style, narrative framework, linguistic tools.

## الإجراءات اللسانية في البنية النصية:

### 1. الشخصية:

إن للشخصية أهمية ودورا كبيرين؛ إذ تناولتها الدراسات النقدية على اختلاف مراحل العمل الروائي، حيث يمكن تمييز وتعيين خصائص كل مرحلة، وذلك لصلتها مع الشخصية 'وما تعبر عنه من فهم لها وهي تشكل علاقاتها بها مع الواقع حيث بقيت هذه العلاقة مركز الوعي النقدي في استيعاب فاعلية الشخصية وتحديد ما تتميز به من ملامح وسمات في استجابتها لازدواجية السياق وهي تقدم عالما متخيلا في شيء من العلاقة المتكشفة مع عالمنا التجريبي"[1].

كما تعد الشخصية في بنية النص الروائي ركنا ذا أهمية بالغة، إذ هي من الأركان الأساسية التي "تتجلى عبر أفعالها الأحداث وتتضح الأفكار وتتخلق من خلال شبكة علاقاتها حياة خاصة تكون مادة هذا العمل"[2]. ومن هاهنا فهي "العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمنية والمكانية الضرورية"[3]. وبالتالي فإن الشخصية مرهونة بالتعبير عن حياة وتجارب الإنسان، وذلك لأنها تؤدي أدوار "مختلف الأفعال التي ترتابط وتتكامل في مجرى الحكي"[4]. فنسيج النص الروائي واتصال حلقاته "معقود إلى درجة كبيرة بما يميز شخصياته من نشاط، وما يَنِمُّ عنها من أفعال وحوارات تتباين بتباين محمولاتها واختلاف مواقعها ومستوياتها "[5].

تنفتح البنية النصية لرواية "المقامات" على مجموعة من الشخصيات، تتباين صورها وتتنوع مهماتها "محققة لكل منها رتبة داخل النص، تقوم على ما تتمتع به الشخصية من مستوى وما يُكشف عنها من معلومات "[6].

#### -شخصيات نص المقامات:

إن شخصيات "المقامات" هي عبارة عن علامات سيميائية ذات مضامين موزعة وَفق محاور دلالية تنضوي تحتها، وتعبر عن واقع مأساوي يثير الشفقة والرحمة، إذ نجد كل شخصية موكل إليها فعل أو أكثر من فعل تقوم به، وبالتالي فإن هناك علاقة قائمة بين الحدث والشخصيات الفاعلة فيه، وهذا يبين لنا العلاقة التلفظية التي ينشئها الراوي مع الحدث عبر وسائط مؤدية لهذه الأحداث هي الشخصيات ذاتها.

كما أن ما يميز شخصيات هذه "المقامات" هو الطابع النفساني الذي هو عبارة عن عوالم نفسية تدور في فلكها هذه الشخصيات، إذ نجد كل شخصية منوطة بعالمين: أحدهما واقع مرير ترفضه، وثانيهما واقع ترضاه وتبغيه يرفضه المجتمع، وهنا تكمن فسحة الجنون، هذه الفسحة التي ترسمها كل شخصية لتعيش فيها منفردة منعزلة، وبالتالي فهي شاذة عن الحقيقة الموجودة وعن الواقع.

إن الشخصيات في "المقامات" تتوزع وَفق مستويين:

- المستوى الأول: مستوى تشكيل النص باعتباره فواعل. والفواعل هي محركات لمصنفات دلالية معينة مرتبطة بعملية بناء النص الروائي.
- المستوى الثاني: ويتمثل في ما تعكسه هذه الفواعل بمضامينها الدلالية من وقائع اجتماعية وثقافية، ومتغيرات لهذه الوقائع هي عبارة عن توترات سببت أزمات سيكولوجية، وباتت معاناةً يتشنج لوقعها ذوو الإحساس المرهف كما هو الشأن بالنسبة للشخص "سليم'

ومن هنا، فإن ما نلمسه عند قراءتنا لـ: "مقامات الذاكرة المنسية" هو "أن الفعل والشخصية يتكونان تدريجيا على امتداد الخط الزمني في عملية القراءة وتطور السرد"[7]. كما لا يمكن فصل الشخصية عما تنتجه من أحداث، ومن هنا كذلك يرى لوتمان Luthman أن " الحدث داخل النص هو تنقل الشخصية عبر حدود الحقل الدلالي، فالحدث يوجد عندما يتضافر عنصران: الشخصية والحقل الدلالي"[8]، وذلك لأن الحدث زمن تتحرك فيه الشخصيات لتجسد وقائع محددة ذات بنية دلالية محددة.

وعليه، فإن تشكل النص الروائي في "المقامات" يتحدد من خلال هذا التفاعل المتبادل بين الأفعال (وهي مشحونة بحمولة زمنية) والفواعل/الشخصيات باعتبارها المحرك الأساس والمحقق لهذه الأفعال.

وقد وظف الكاتب شخصياته وهو يهدف إلى تجسيد نمطين من التصورات النقدية "تُشَكِّلُهما حساسيةُ هذه العلاقة وفاعليةُ حركتها داخلَ النص وخارجَه"[9]. وأما خارج النص فذلك لأن الشخصية تستمد وجودها من واقع خارجي تتجاذبه عدة عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية وغيرها. وهي بهذا تعد سجلا تاريخيا يوثق الأحداث كما هي، أو يبين صراعها مع قوى مختلفة كما هو الحال بالنسبة لشخصية

"سليم" التي ترفض الواقع، وهي برفضها له تمثل عالم المجانين. وأما حركتها داخل النص الروائي فنجد بأن مفهومها تخيلي لساني؛ لأن اللغة هي المادة الأساس التي يصطنعها الكاتب لتكوين الشخصية وتبيين نسيجها اللساني ومن ثَمَّ إيحائها الدلالي، وهي تتصارع مع واقع لا ترضاه داخل نص أدبي يبين خصوصياتها وتميزها عن سواها من الشخصيات الأخرى.

وقد اصطنع الكاتب لشخصياته أسماء ذات صيغ لسانية تُنِمُّ عن مقامات وأبعاد دلالية توجه القارئ، وتجعله يستعين بهذه الصيغ اللسانية وبحمولاتها الدلالية ليرسم في ذهنه الصورة الحقيقية لشخصيات العمل الإبداعي.

إن ما تتميز به الشخصية في وجودها وتختص به في حياتها عن غيرها هو تسميتها. والتسمية قد تكون مكررة، ومع ذلك تعد أساس التمييز والتخصيص، وهي أول ما تتخذه الذات لها من مجتمعها. فتسمية المولود واجبة على والده في تراثنا الاجتماعي، وفي فقهنا الإسلامي موضوع يسمى العقيقة؛ فمن واجب المولود على والده أن يختار له اسمه، ولاختيار الاسم شروط وخلفيات دلالية. والاسم "لفظ أو صوت، مركب من أصوات، له معنى"[10] ومعناه ودلالته يكونان "إما على سبيل المطابقة، وإما على سبيل التضمين، وإما على سبيل الاستتباع والالتزام مثل دلالة السقف على الحائط والإنسان على قابل صنعة الكتابة"[11]. ومن هنا فإن اختيار الاسم هو من واجبات الوالد، يرتبط بالعرف والتقاليد، ومن هذه الزاوية تكون دلالة الاسم عرفية ذات خلفية اجتماعية، لحال توقعية أو تذكرية، ومن ذلك أن ابن الرومي سمى ابنه يحي ولكنه مات فقال فيه[12]:

وسميته يحي ليحيا فلم يكن *** إلى مردِّ أمر الله فيه سبيلا

وإذا كان الوالد يختار لأبنائه أسماءهم فإن المبدع يقوم بالمهمة نفسها، إذ يختار لشخصيات روايته أسماء يتميزون بها ويختصون بها عن سواهم، وهي ذات وظائف دلالية مشحونة بوقائع وأحداث تقوم بها داخل النص الروائي، مما يجعله ينماز بخصائص ذات حمولة دلالية تبين مجاله، سواء أكان اجتماعيا أم سياسيا أم اقتصاديا أم غير ذلك.

وعليه، فقد وظف الكاتب في "مقاماته" شخصياتٍ بأسماء اختارها وهو يهدف إلى تخصيص نصه الروائي، إذ هو يندرج في المجال السيكولوجي النفسي، حيث نجد

الأسماء تؤدي دورا أساسيا في بيان الشخصيات، كما تعمل على تحديد وتبيين المرجعية الواقعية التي تنتمي إليها. "إن الشخصيةَ وتجربتَها تُوَثَّقان بما يُحَدَّدُ للأولى من اسم وما يُكشَف عنها من معلومات تسهم عبر كمِّها ونوعيتها بتحقيق فاعليتها داخل النص مثلما تسهم عبر الطريقة التي ترد بها بإضاءة جانب أساسي من جوانب بنائه. بيد أن ذلك لا يمنع وجود نوع ثانٍ من الشخصيات، تكتفي النصوص في استحضاره ومتابعة أفعاله"[13] كما هو الحال بالنسبة للشخصيات الثانوية التي تؤدي أدوارا تدور في فلك الشخصيات الأساسية وتكمل أفعالها، فيظهر في النص تنويع في الشخصيات ذات مستويات متعددة وأهميات متباينة.[14] ويظهر ذلك جليا في شخصيات "المقامات" التي استطاع الكاتب أن يوزعها وفق أهميتها في النص إلى نوعين اثنين:

**أ. الشخصية المحورية:** هي الشخصية التي تتمحور حولها وقائع وأحداث النص، وتمثل في قوة حضورها مركزَ الحدث وأساس حركته لأنها ذات صلة بواقع معلوم، حيث وظفها الكاتب داخل النص باسمها وبيّن صفاتِها الجسدية وطبائعَها الفطرية والمكتسبة.

إن الشخصية المحورية في "مقامات الذاكرة المنسية" هي شخصية "سليم" الذي هو البطل في هذه الرواية، إذ يعد العنصر الفاعل والمحرك الذي بني عليه نص الرواية في "المقامات". و"سليم" كما يبين التقرير الطبي هو "معلم متقاعد.. أرهقته سنوات العمل.. وأحدثت في نفسه آثارا أضحت تشوش على معاملاته اليومية.. لقد أصبح خطرا على نفسه، وعلى ذويه.. بيد أن لا شيء فيه يكشف عن الثورة والهيجان"[15]. وقد اختاره المبدع وهو يهدف إلى إبراز دلالته الكامنة في بنية صيغته. فهو على وزن فعيل صفة مشبهة باسم الفاعل من الفعل سلِمَ يسلَم فهو سليم، ودلالته إنما تكمن في أنه يدل على الثبات والدوام، وهذه صفة وظفها الكاتب اسما لهذه الشخصية التي تبدو في نظر المجتمع مجنونة وتعاني اضطرابات نفسية لا يرضاها محيطُه الاجتماعي، لأنها تتنافى مع الواقع المعيش الذي فرضته ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

ونجد "سليم" يمارس عمله الجنوني ويظهره في الكتابة؛ فزمن "سليم" مع فعل الكتابة بدأ عندما وجد نفسه وحيدا؛ وهذا ما يؤكده هو بنفسه عندما سألته الممرضة عن عدد الدفاتر التي كتبها فابتسم وقال: "إنه كتاب واحد، يمتد كما يمتد

أديم الأرض، ويتسع كما تتسع السماء".[16] فزمن "سليم" مع فعل الكتابة جاء مقيدا ومحددا، ونلمس ذلك في قوله: "بدأت الكتابة لما فقدت الجليس من أهل وصديق، فكان الدفتر تلو الدفتر خيرَ أُذُنٍ أدع فيها ما يَهجِسُ به الخاطر أولَ الأمر قبل أن أنعم برفقاء الرحلة"[17]. كما أن لفظة "سليم" جاءت دالة ومعبرة عن حالته التي هو عليها الآن، إذ كان في نيته التغيير والتجديد، غير أنه لم يستطع ذلك وبقي ثابتا، مسالما ومسلِّما بما هو حوله. ومن ذلك قوله: "فانقلب الوضع رأسا على عقب.. كنت قبل ذلك أكتب وفي ظني أنني أحمل الحقيقة، ثم صرت أكتب لأسجل الحقيقة من أفواه هؤلاء الرفقاء الذين أصادفهم في مسار الرحلة"[18]. و"سليم" بالإضافة إلى ذلك أطلقه الكاتب على هذه الشخصية المريضة بالجنون، وهذا من التضاد، فهو سليم في نظره ومريض مجنون في نظر المجتمع حوله. وبقي ثابتا حتى في كتاباته إذ لم تتعدد دفاتره وإنما هو كتاب واحد وها هو يؤكد ذلك قائلا: "إنه كتاب واحد يا بنيتي أتمنى أن يكون كتاب الحياة التي تقع وراء تخوم الجنون، أو ما تسمونه أنتم جنونا"[19]. فهو إذن سليم ولا يرضى بهذه الصفة التي وسمه بها مجتمعه. وعليه أدخل مستشفى المجانين واحتار الطبيب في أمر جنونه، حيث "قلب بين يديه البطاقة الطبية، وعاد يقرأ اسم الرجل "سليم".. حقا إنه سليم.. لا شيء في ظاهره ينبئ عن مرض أو اختلال.. حتى حديثه الهادئ يكشف عن شخصية ما زالت تتمتع بكثير من قواها العقلية.. بل إنه يعجب من الجهة التي بعثت إليه بملف "سليم".. وكيف رأت أن الرجل في حاجة إلى فحص نفسي"[20].

واستطاع "سليم" أن يشخص ما يعاني منه عندما قال للممرضة "عائشة": "كل واحد منا كتاب مفتوح على الآخر إن كلف نفسه عناء القراءة الجادة.. لو قرأ كل واحد منا كتاب الآخر، لحصل التواصل الذي تفتقر إليه الحضارة في شرق الأرض ومغربها.. داؤنا يا بنية، يسمى سوء التفاهم وجرثومته الخطيرة سوء النوايا.. إذا ساءت النية، ساء التفاهم، وإذا ساء التفاهم، ساء التواصل، وإذا ساء التواصل، ساءت الحياة، وانتهى سر الوجود، وعم الشقاء"[21].

ففي قوله هذا نلمس تشخيصا لما عجــز عن تشخيصه الطبيب المعالج الذي احتار فيما يعاني منه "سليم". إن مشكلة "سليم" تتمثل في عدم التواصل الناتج عن سوء النوايا وسوء التفاهم.

**ب. الشخصيات الثانوية:** أما الشخصية الثانوية فهي الشخصيات التي لا نلمس لها دورا مميزا ولا يركز عليها الكاتب كثيرا، بل هي الشخصيات المساعدة والمكملة لما تقوم به الشخصية المحورية، حيث "تتصل بها اتصالا مباشرا ينمّي الحدث عبر تلاحم أفعالها ويوسع المساحة الإنسانية للنص"[22].

ومن الشخصيات الثانوية التي وظفها الروائي في مقاماته شخصية الطبيب وأطلق عليه اسم "رفيق". ولم يورد هذا الاسم صدفة، وإنما اختاره اختيارا أضفى على البنية النصية للرواية دلالة ميزته عن غيره من النصوص وحددت مجاله ومقامه.

إن "رفيق" هو من رَفُقَ بضم العين يرفُق رَفاقة، بمعنى صار رفيقا، تقول كنت في رَفاقة فلان أي في صحبته، فهو رفيق[23]. وهو في صيغته الإفرادية صفة مشبهة باسم الفاعل ودلالتها هي الثبات والدوام. ولعل هذا ما نستشعره في دلالة "رفيق"، إذ نجده ملازما لمرضاه لا يفارقهم أبدا، رفيق بهم، ومصاحب ومؤنس لهم، يحاول معالجتهم من الجنون، وهذا ما يميز الطبيب النفساني عن غيره من الأطباء، إذ يجب أن يكون رفيقا للمريض، وفي رفقته له علاج لا يكون بالأدوية، وإنما بالاستماع إليه وإلى همومه ومعاناته، محاولا تفهمه ومساعدته ليخرجه من حلقة مظلمة تتنافى مع ما هو موجود في المجتمع إلى حلقة أخرى مشرقة مليئة بالآمال والأحلام، وكأن "رفيق" يحاول أن يوصل خيط هذه الحلقة المفقودة إلى بقية الحلقات ليقضي على هذا الانفصام والانقطاع اللذان يعاني منهما المريض.

كما أن هناك شخصيات أخرى ثانوية وظفها الكاتب لتكون متممة للأحداث التي تقوم بها الشخصية المحورية، إذ تتم الحبكة الروائية بتآزرها، ومن هذه الشخصيات نجد الممرضات: "عائشة" و"زينب" و"إسمهان".

فأما "عائشة" فقد اختار الكاتب اسمها من عاش يعيش عيشا، وهي عائشة اسم فاعل لفعل متعدٍ؛ إذ نجدها تقوم على راحة المرضى وتهدئ آلامهم بالحقن، فهي لم تكن عائشة لنفسها وإنما هي ممرضة تسهر على مرضاها، ومن هنا فإن عملها يتعدى إلى غيرها وهذا الغير هو المرضى؛ كما نجد "عائشة" هي الأخرى تعاني من متاعب تخفيها وراء ابتسامتها أمام المرضى لتبعث فيهم الإحساس بالاطمئنان إليها حتى وهي تغرز في أجسادهم الحقن. وقد أدرك "سليم" ألمها ولذا انتبه إليها قائلا: "كيف لك يا ابنتي أن تسكني ألم الناس وأتعابَهم بهذه الأشياء التافهة.. إن أتعابهم وأتعابَنا لا

تكفيهم الحقن.. ما هذه إلا وسائل لتأجيل الألم إلى حين.. لو فحصت نفسك لوجدت أنك مثلنا في حاجة إلى شيء آخر غير الحقن"[24]. وما قوله هذا لها إلا دليل على أنها هي الأخرى تعاني من متاعب أرهقها بها كاهل الحياة. فنظرت إليه ساخرة وقالت: "وهل تظن أنني في حاجة إلى شيء آخر...؟"، فرد عليها "سليم" مشخصا داءها ودواءها في آن واحد حيث قال: "أنتِ في حاجة إلى من يقول لك إنك ضرورية له، ضرورة الماء والهواء.. ضرورة الوجود كله. هذا هو داؤك وذاك دواؤك.. أنت في كيانك تشعرين بهذا الفراغ الذي يسمم حياتك كل يوم، تشعرين أنه في إمكانك أن تقدمي السعادة والحياة للغير إن التفت إليك.. ذلك شعور الأم فيك.. " إلى أن يقول: "لقد خاب الذي تركك تفلتين من بين يديه في لحظة طيش وجنون أو في لحظة غرور وبلادة"[25]. فلقد أدرك "سليم" بخبرته وفطنته أن "عائشة" مطلقة وقد قرأ ذلك في ملامحها. وحين سألته: "كيف علمت؟" قال لها: "أنا ما علمت شيئا. إنما قرأت" [26].

وأما الممرضة الثانية فتتمثل في شخصية "إسمهان" التي وظفها الكاتب وهو يهدف إلى بيان أن ما يعاني منه "سليم" لا يعد جنونا وإنما هو مجرد سوء تفاهم، إذ أوضح في هذه "المقامات" أن "سليم" الذي يعترف له الطب بالجنون وجد نفسه في موقف الطبيب النفساني يعمل على شفاء "إسمهان" من عقدتها الماثلة في الخجل والعصبية والخوف من الحقن، حيث بين لها أن "الخوف هو أقوم السبل للنجاة، وهو السبيل للنجاح" إلى أن يقول لها: "الخوف ليس مرضا"[27]. إذ نلاحظ من خلال هذا كيف استطاع مريض أن يشخص داء مريض آخر ويعالجه منه. وقد وظف بديلا لم تعطه له هذه الممرضة -أي "إسمهان"- من حقن، بل وظف أسلوبا علاجيا تمثل في أسلوب التضاد الذي جسده في الكلمات الآتية[28]: الفشل ≠ النجاح، الانتقاد ≠ التجويد، الظلم ≠ الأمن، وكلها كلمات دالة على أحداث غير مقيدة بزمان، حيث جاء بها الكاتب مصادر وعاملها معاملة الأسماء في الدلالة وكأنها أشياء ماثلة وصفات يتصف بها الإنسان.

## 2. دلالة الوقفة الزمنية في المقامات:

إن البنية النصية لـ "المقامات" تنطوي على أحداث عديدة، قائمة في أساسها على بلورة النص الروائي وتحديد مجاله المناسب له في إضاءة واقعه وتجسيد حالات مرضاه، وبالتالي تَمَيُّزُه عن غيره من النصوص، حيث إن البنية الزمنية التي وظفها

الكاتب في الرواية تبين نسيج علاقات عدد من العناصر، مما يعطي الزمان أبعاده الحقيقية وإيحاءاتِه الدلالية.

إن ما يشكل الفضاء الزمني في "المقامات" هو: اتجاهان: أحدهما الحاضر: وهو زمن إنتاج النص وواقعه الحاضر. وثانيهما الماضي: وهو ما تشكل من أطياف تلك الحكايات التي كان يرويها "سليم"، إذ كانت تنقلات الشخصيات تتجاوز بحركتها الحد المعقول، حيث يتعدى الزمن فيها الحدود مما لا يتواءم والنظرة الواقعية للزمن الذي يعيشه "سليم" ومجتمعَه، وهذا ما أدى إلى اتهامه بالجنون وإدخاله مستشفى الأمراض النفسية.

ومما كان يرويه "سليم" ويسجله في دفتره من حكايات حكاية "السندباد" الذي تخيله وتخيل سفره معه، ثم تخيل نفسه هو "السندباد"، حتى أنه يقول في إحدى مقاماته "شعرت باضطراب مخيف، كيف أكون السندباد.. كيف أكون هذا الفتى الشقي الذي عرفته الجزر والبحار؟"[29]. ولإيضاح رحلته الزمنية هذه وظف فعل الكينونة دالا على الحاضر، وهذا يبين أن رحلة "السندباد" الحقيقية كانت في الزمن الماضي، وأما رحلته هو الخيالية فهي حاصلة في الزمن الحاضر، ويتجسد ذلك من خلال فعل الكينونة الدال على التحول، كما صدر هذا الفعل باسم الاستفهام "كيف" الدال على النفي. ومن هنا، فإن "سليم" ثابت في مكانه راحل بخياله متجول في عوالم خيالية تبعده وتنسيه معاناته، وهذا يدل على هروبه وابتعاده عن هذه المعاناة. ثم يفيق من خياله متسائلا: "كيف أستدرك على نصه نصا جديدا مختلفا؟"[30] مستعملا فعلا دالا على الحاضر، غير أن أداة الاستفهام "كيف" هاهنا لم تأت دالة على نفي الحدث، وإنما هي دالة على إثباته بدليل قوله: "ثم شعرت بشيء من الراحة، وقلت في نفسي لو كتب "السندباد" عن نفسه، فما عساه كان قد كتب؟"[31].

لقد كانت رحلاته الخيالية هذه معبرة عن أزمنة غابرة ترجمها هو في واقعه الحاضر؛ ففي الرحلة السندبادية عواصف مخيفة وفي حياة "سليم" عواصف اجتماعية وتغيرات سياسية واقتصادية عليه أن يتعايش معها ويتعاطف مع عواصفها كي يصل إلى برِّ الأمان. وهذا ما بينه المبدع حين قال على لسان الشيخ الضرير الذي التقى به "سليم" في رحلته السندبادية الخيالية وهو في تلك العاصفة الهوجاء: "اعلم أنه لا شيء ينجينا مما نحن فيه سوى التعاطف مع العاصفة، أن

تكون معها لا ضدها.. أن تفهم عنها لغتها، لا أن تقابلها بالصمم والعمى"[32]. لقد أدرك "سليم" بعد ذلك أنه عليه أن يتعاطف مع العاصفة الهوجاء، ولكنه عاد وتساءل قائلا: "ولكن كيف أتعاطف معها؟ كيف أكون جزءا منها، وتكون هي جزءا مني"[33]، وفي تساؤله دلالة على الاستحالة حيث وظف الكاتب صيغا حدثية دالة على الحاضر المستمر، وهنا يكمن جنون "سليم".

وأما الزمن الحاضر فتمثل في هذا الواقع المرير الذي يعيشه "سليم" وكافة الذين هم في مثل حالته مودعين في المستشفى، يتلقون الحقن التخديرية من حين لآخر. وقد تنوعت الوحدات الزمنية معتمدة على مقاطع مختلفة جسدت نسيج هذه الرواية، حيث وظف لها الكاتب أفعالا مشحونة بحمولات زمنية دالة على الحاضر الذي يعيشه "سليم" وبقية أسرته الاستشفائية، فمن ذلك مثلا أنه استعمل الحاضر الدال على المستقبل في قول "سليم" للطبيب: "لن تستطيع معي صبرا"[34] حيث وظف أداة النفي "لن" التي تنفي وقوع الحدث في المستقبل، وهذا ما يبين ويؤكد أن الشخصية المحورية في "المقامات" يتنافى واقعها الحقيقي والعالم الذي أدخلت فيه.

وأما بقية الأحداث فقد أوردها الكاتب بحسب مقاماتها وبحسب ما يقترحه الحدث وما يتطلبه الموقف، "فالزمان من هذا الجانب مكون سردي، يخضع أسوة بمكونات السرد الأخرى لغايات النصوص وأهدافها، ويتأثر بما يحدد له من موقع في العملية السردية بسبل أداء النصوص وأساليب عملها"[35]؛ غير أنه ركز فيها على الزمن الماضي الذي عادة ما يستعمل للقص والحكي، وإن كان في هذه الرواية بالإضافة إلى دلالته على الماضي فهو يدل على الحاضر، وهذا ما نلمسه من خلال تعامل الشخصيات فيما بينها، فحديث "سليم" مع "رفيق" أو مع الممرضات ليس ماضيا، وإنما هو حاضر يعيشه "سليم" وبقية من هم في المستشفى.

كما عبر الكاتب عن مراحل زمنية وظفها وهو يهدف إلى بيان الوضعية الاجتماعية والوضعية النفسية لشخصياته، فجاءت موزعة في نسيج سردي بين أهمية إيرادها مستندا في ذلك إلى صيغ وصفية استقاها من عمق ما تعاني منه الشخصيات ذاتها، حيث يقول على لسان "عائشة" الممرضة وهي تتحاور مع "سليم": "لستَ مجنونا.. نحن المجانين.. أنا المطلقة.. وإسمهان المعقدة.. وزينب العانس.. ورفيق الذي لا حول ولا قوة له "[36] إلى أن يقول متحدثا عن المجانين "إنهم أشبه

بالمستنقع الراكد الذي يستر الحياة التي تعج في بطنه"[37]؛ فقد وُصف "سليم" بصفة ذات صيغة صرفية على وزن مفعول، وصيغة مفعول تبين خصوصيةً وتميزاً وُصِفَ به "سليم". وكذا بالنسبة لـ"عائشة" فهي المطلقة حيث وصفها هي الأخرى بصفة أصبحت تعرف بها وتميزها عن غيرها؛ إذ هي التي وقع عليها فعل الفاعل وبالتالي هي المطلقة. ومثلها "إسمهان" التي وقع عليها فعل الزمن فأصبحت معقدة. وأما "زينب" فقد وصفها بصفة هي في صيغتها اسم فاعل غير أنها تدل على أنها وقع عليها فعل الفاعل فألبسها هذه الصفة. وأما "رفيق" الطبيب فقد وصفه بجملة اسمية كاملة تبين عجزه في أحايين كثيرة أمام ما يعاني منه المرضى كما حدث مع "سليم"؛ فهؤلاء المجانين الموجودون في المستشفى هم الأصحاء في نظر الممرضة "عائشة"، مخدرين بالدواء وقد شبههم بالمستنقع الراكد. والمستنقع كلمة تعبر عن وصف ذي دلالة واضحة تبين حالة المجانين في المستشفى، والمستنقع لا يكون مستنقعا إلا نتيجة لتحول زمني. وقد وُصِف هذا المستنقع بالراكد، فهو الوصف على الوصف. ومن هنا، فإننا نستشف عوالم متداخلة، يحتضنها عالم واحد وفضاء واحد، فالأصحاء هم المجانين والمجانين هم الأصحاء في نظر "عائشة".

ويمكن توضيح ذلك وفق الجدول الآتي:

| الشخصية | الوحدة الزمنية | دلالتها |
|---|---|---|
| سليم | مجنون | -اسم مفعول دال على حالة سليم النفسية. |
| عائشة | المطلقة | -اسم دال على الحالة الاجتماعية لعائشة. |
| إسمهان | المعقدة | -اسم دال على حالة إسمهان النفسية. |
| زينب | العانس | -اسم فاعل دال على حالة زينب الاجتماعية النفسية. |
| رفيق | لا حول ولا قوة له | -اسم دال على عجز الطبيب أمام المرضى. |
| المجانين | -المستنقع الراكد<br>-مستنقع رهيب<br>-مستنقع أخضر الوجه<br>-مستنقع أسود البطن | -اسم مفعول دال على حالة المجانين في المستشفى وقد أورده الكاتب موصوفا بصيغة أخرى إذ هو الوصف على الوصف. فالمجانين مستنقع والمستنقع راكد. |

كما وظف الكاتب وحدات زمنية أخرى تدل على الاستمرارية، ومنها كلمة "دوما" التي استعملها "سليم" وهو يتحدث مع عائشة التي كانت تريد قراءة ما يكتب وتخشى

من أنها لا تحسن القراءة لأنها ليست متعلمة بالقدر الكافي، حيث قال: "القراءة ستظل دوما الفعل الذي تبنى عليه المعرفة الحقيقية"[38]، فهذه الوحدة الزمنية إنما وظفها الكاتب على لسان "سليم" ليجعل منها متنفسا يطل من خلاله على عالم المعرفة والحقيقة.

### 3-المكان في المقامات:

إن للمكان في مجال النقد الأدبي وتحليل النصوص أهمية كبيرة، حيث حظي بدراسات عديدة بينت جماليته وشعريته ومدى إسهامه في تشكيل النصوص الأدبية وبخاصة في الرواية التي يقول عبد الملك مرتاض إنها: "تختلف عن سواها برسم الحيز وغرس الزمن فيه، أو تعويم الزمن في الحيز"[39]. ومن هنا لا يمكن فصل المكان عن الزمان إذ هما صنوان متلازمان لا يفترقان، "ومتقارفان لا يتزايلان، إلا أن جمهور الدارسين ومحللي الروايات يميزون بينهما على سبيل التيسير الإجرائي، وإلا فلا حيز بلا زمان، ولا زمان بلا حيز، ولا يجوز أن ينفصل أحدهما عن صنوه في العمل السردي"[40].

كما أن للمكان في بنية نص "المقامات" خصوصية تميزه، حيث انتظمت وفقه عناصر النص الروائي، وبينت مدى إسهامه في إبراز وتجلية هذه الخصوصية، وذلك بتواشج هذا العنصر الفعال مع سائر العناصر الأخرى التي تعمل على تحقيق مجال واضح وحضور مؤثر يمثل فاعلية هذه العناصر في ترابطها مع بعضها البعض. والمكان هو واحد من بين هذه العناصر، إذ "هو الفَسْح للشخصيات لكي تتحرك في مساحة معينة إن كانت جغرافية... وفي مساحة غير معينة إن كانت خرافية"[41].

لقد وظف الكاتب المكان في "المقامات" بغية تحقيق غاية معينة في النص الروائي، حيث اتخذه مجالا تسعى فيه الشخصيات إلى تحقيق أهداف معينة، فكان المكان ها هنا هو المستشفى، هذا الفضاء الذي يمثل مجالا واسعا تتنقل فيه الشخصيات من مكان إلى مكان آخر وهي تؤدي وظائف معينة مما يعمل على بناء النص الروائي وإظهار خصوصيته.

ويعد المستشفى أحد الأطراف الأساسية المساعدة لـ"سليم" وبقية المجانين باعتباره المكان الذي يعمل على تغيير مجريات الواقع الذي يعيشه المريض. إن الدلالة الإيحائية لكلمة مستشفى تكمن في لفظه، إذ هو مكان لطلب الشفاء ومفارقة الداء، كما تكمن في صيغته، فالألف والسين والتاء تدل على الطلب، وهذا

يمثل نقل المرضى من واقعهم اللاواقع إلى واقع واقع. فالتصور الحقيقي للمستشفى هو الذي جعل "أيمن" الابن البكر لـ"سليم" يدخل أباه إلى المستشفى ويعرضه على طبيب نفساني. فقد جاء المكان موظفا للتعبير عن ممارسة سيميائية تتوافق وتفاعل الشخصيات مع الأحداث.

والمكان في "المقامات" كذلك هو عبارة عن علامة سيميائية ذات أبعاد دلالية، وذلك بإثارته لحركة دينامية في السياق الروائي، مما يجعل تفاعل الشخصيات مع الأحداث محققا في كل متكامل يمثله الطابع النفساني العام الذي يطبع هذا النوع الأدبي ويهيمن على الرواية ككل، مما يجعلها تنفرد بخصوصية معينة؛ كما أن المستشفى في "المقامات" هو إطار مادي وظفه الكاتب "ليستحضر من خلاله كل المشكلات السردية الأُخَر مثل الشخصية والحدث والزمان. إنه خشبة مسرح واسعة تعرض الشخصياتُ من خلالها أهواءَها وهواجسَها... ولا تستطيع الشخصيات في تعاملها مع الأحداث فعلا أو تفاعلا أن تفلُت من قبضة هذا الحيز، كما أن هذا الحيز يَمْثُلُ في مألوف العادة، طائعا لها يمتد إذا مَدَدْتَهُ، ويتسع إذا وَسَّعْتَهُ، ويتجه أنَّى وجهته"[42]. ومن هنا، فإن المستشفى بالنسبة لـ"سليم" أو النزل كما يحلو له أن يسميه يمثل مرحلة معينة من مراحل حياته مثلما مثلت كلية علم النفس بالنسبة للطبيب "رفيق". وهذا ما أكده "رويتر Yves Reuter في كتابه: Introduction à l'analyse du roman وهو يتحدث عن وظائف المكان حيث قال: "إن الأمكنة تعني كذلك مراحل من الحياة"[43].

**الخاتمة:**

كانت هذه أهم الإجراءات اللسانية التي درستها في نص "مقامات الذاكرة المنسية" التي تبين من خلالها أن المبدع استطاع أن يوظفها هادفا إلى إبراز إيحاءاتها الدلالية وخصوصية مضامينها الحكائية، حيث إن هذا النوع الأدبي ينماز بعلامات سيميائية أضفت عليه طابعا مميزا ونلمس ذلك في بداية ونهاية هذه الرواية إذ استهلها صاحبها بآية قرآنية من سورة الكهف تمثلت في قوله تعالى: "لن تستطيع معي صبرا" (الكهف 67)، وختمها بآية قرآنية كذلك من سورة الكهف تمثلت في قوله تعالى: "ألم أقل لك: إنك لن تستطيع معي صبرا" (الكهف 75).

## الإحالات والهوامش:

[1] لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال، دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية مع عناية بكتاب المفضل الضبي (أمثال العرب)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 129.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990، ص 20.

[4] سعيد يقطين، قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 87.

[5] لؤي حمزة عباس، سرد المثال، ص 129.

[6] المرجع نفسه، ص 140.

[7] ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1998، ص 96.

[8] عبد الرحمن بو علي، شخصيات النص السردي، مجلة علامات، مج8، ج31، 1999. ص 84.

[9] لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال، ص 130.

[10] آرسطو، فن الشعر، تر وتح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953، ص56.

[11] أبو علي بن سينا، الإشارات والتنبيهات، شر: نصر الدين الطوسي، تح: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1960، ص188.

[12] يراجع: حنا الفاخوري وجماعة من الأساتذة، منتخبات الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسية، ط5، 1970، بيروت، ص 230.

[13] لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال. ص 132.

[14] يراجع: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[15] حبيب مونسي، مقامات الذاكرة المنسية، الصندوق الوطني لترقية الفنون، 2003-2004، ص4.

[16] المرجع نفسه، ص 68.

[17] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[18] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[19] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[20] المرجع نفسه، ص 4.

[21] المرجع نفسه، ص 19.

[22] لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال. ص 140.

[23] المعجم الوسيط، مطابع دار المعارف، مصر، ط2، 1972، ج1، ص 362.

[24] حبيب مونسي، مقامات الذاكرة المنسية، ص 18.

[25] المرجع نفسه، ص ص 18- 19.

[26] المرجع نفسه، ص 19.

[27] المرجع نفسه، ص 60.

[28] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[29] المرجع نفسه، ص 25.

[30] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[31] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[32] المرجع نفسه، ص 31.

[33] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[34] المرجع نفسه، ص 3.

[35] لؤي حمزة عباس، سرد المثال. ص 174.

[36] حبيب مونسي، مقامات الذاكرة المنسية، ص 64.

[37] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[38] المرجع نفسه، ص 65.

[39] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد، مطابع الرسالة، الكويت، 1978، ص 148.

[40] المرجع نفسه، ص 149.

[41] المرجع نفسه، ص ص 148-149.

[42] المرجع نفسه، ص 158.

[43] Yves Reuter, Introduction à l'analyse du roman, Dunod, Paris,1996, p57.

## قائمة المصادروالمراجع:

### باللغة العربية:

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مطابع دار المعارف، مصر، ط2، 1972.

2- أبو علي بن سينا، الإشارات والتنبيهات، شرح: نصر الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1960.

3- آرسطو، فن الشعر، تر جمة وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953.

4- حبيب مونسي، مقامات الذاكرة المنسية، الصندوق الوطني لترقية الفنون، 2003-2004.

5- حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990.

6- حنا الفاخوري وجماعة من الأساتذة، منتخبات الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسية، ط5، 1970، بيروت.

7- سعيد يقطين، قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.

8- عبد الرحمن بو علي، شخصيات النص السردي، مجلة علامات، مج8، ج31، 1999.

9- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد، مطابع الرسالة، الكويت، 1978.

10-لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال، دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية مع عناية بكتاب المفضل الضبي (أمثال العرب)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

11- ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1998.

### باللغات الأجنبية:

1- Yves Reuter, Introduction à l’analyse du roman, Dunod, Paris,1996.

# مظاهر المحليّة في الشعر العربي في الأندلس في القرن الثالث الهجري: مهيّئاتها وبداية ظهور ملامحها في بعض موضوعاتها (الجزء الثاني)

**Local Features in Andalusian Arabic Poetry in the Third Century AH - Context and First Aspects of Appearance - Part Two**

**عبد القادر هني**
جامعة الجزائر 2
henni2006@gmail.com

**الملخص:**
إنّ متتبّع الدراسات المنجزة حديثا عن الشعر الأندلسي يُلفت نظره أنّ جُلّها يقرر بثقة كبيرة أن هذا الشعر لم يكن، ولمدّة تربو عن أربعة قرون سوى صدى للشعر العربي في المشرق إن في موضوعاته أو في معانيه، فهذا الشعر كما يقرر أحد دارسيه "لم توح به عاطفة ولم ينبض به إحساس وإنما أهله عالة على المشارقة فيما يقولون وما يفعلون فما هم بشيء إلا صدى لآثار المشرق وآدابه وأبواق تتجاوب فيها تلك الأصوات المنبعثة من الشام إلى العراق، فلا ملكة ولا وجدان ولا مواهب ولا استقلال"[1]. وإزاء هذا الانفصام بين الشعر الأندلسي وبيئته الذي يؤكد عليه أكثر من دارس والذي استمر في نظرهم لردح طويل من الزمن، ارتأينا أن نعود إلى نصوص هذا الشعر في المائة الثالثة للهجرة لبحث علاقة الشاعر الأندلسي بوسطه البيئي بمختلف مكوّناته، لنرى مقدار تمثله له وانفصامه عنه أو انغماسه فيه وإلى أي مدى ارتسمت ملامحه في ما جادت به قريحته. وقد اقتضى ذلك منا محاصرة العوامل القمينة بربط الشاعر بواقعه في تعقده وبمختلف جوانبه ومكوناته التي من شأنها إن توافرت فإنها تحمله على التفاعل معها تفاعلا يَسِمُ رؤيته للأشياء بميسم يميزها عما سواها من الرؤى فيصدر عنها في الموضوعات التي يخوض فيها،

فيقدّم لمتلقيه شعرا هو ثمرة تفاعل عميق بينه وبين بيئته فتغلب عليه سمات تشكل خصوصيته وتؤكد استقلاليته وهي السمات المعلنة في العنوان والمعبر عنها بـ "المحلية."
**الكلمات المفتاحية:** الشّعر الأندلسي، المحلية، المظاهر، المهيئات.

**Abstract :**

The recent studies conducted on Andalusian poetry argue with great confidence that this poetry, for over four centuries, was nothing more than an echo of Arab poetry in the Mašriq (Eastern lands), both in its themes and meanings. According to one of its scholars, this poetry "lacked emotion and sentiment; it did not pulsate with feeling. Its practitioners were merely imitating what the people of the Mašriq said and did. They were nothing but echoes of the cultural heritage and customs of the Mašriq, with voices resonating from the Šām (Syria) to Iraq. There was no sovereignty, no originality, no talent and no independence."[1] In light of this dissociation between Andalusian poetry and its environment, we have decided to revisit the texts of this poetry of the third century AH to examine the relationship between Andalusian poets and their diverse environmental components with regard to the themes they explored and how they offered poetry that is the result of a deep interaction between them and their environment. We will underline the features shaping its individuality and confirm its independence. These features are explicitly expressed in the title and are referred to as "local features."

**Keywords**: Andalusian poetry, local features, manifestations, preparations.

## 2. مظاهر المحلية في بعض موضوعات الشعر:

قلنا في أثناء كلامنا السابق* إن البيئة الأندلسية سواء في مظهرها الطبيعي أو الاجتماعي اكتست طوابع خاصة، لاسيما منذ مطلع القرن الثالث الهجري، من شأنها أن تدعو الإنسان إلى التجاوب معها بفعل ما طرأ على شخصيته وذوقه ونظرته إلى الأشياء من تغير مع مرور الزمن، فيكون لذلك من ثمَّ أثره في إنتاجه المادي وغير المادي الذي سيكون تعبيرا عن هذا الإنسان الذي مسَّ حياته في جوانب كثيرة منها تحوّلٌ لم يُكتب لأسلافه القدامى في الأندلس نفسها، وهو تحوّل لا يُعقل أن تنعدم ملامحه وصوره في إنتاجه الأدبي بوصفه نشاطًا من الأنشطة الإنسانية التي تصطبغ بحياة منتجه لا على سبيل الانعكاس الآلي، إنما على سبيل التفاعل الذي تتباين صُوره من ذات إلى ذات، فيكون هذا الإنتاج جراء ذلك تعبيرا عن حياة صاحبه وعن البيئة التي التقت عناصرها المختلفة في تشكيل شخصيته بالتظافر مع الخصوصيات الفطرية والمكتسبة المميزة لكل ذات من الذوات.

من هذا المنظور سترتسم ملامح المحلية في أشعار الشعراء الذين ترعرعوا في البيئة الأندلسية بالخصوصيات التي حاولنا تقديم صورة عامة عنها في المدى الزمني الذي يهمنا. وجدير بالتنبيه أن ارتسام ملامح المحلية في شعر هذا المدى الزمني لا يعني أن مبدعيه قد أعلنوا الطلاق البائن مع الأغراض المعروفة في الشعر العربي القديم، إن ذلك لم يحدث معهم بل لم يحدث حتى في الشعر المحدث في المشرق، فقد استمرت فيه أغراضه الكبرى مثلما استمرت بعد ذلك في الشعر الأندلسي الذي ستنعقد الصلة بينه وبين بيئة أصحابه، فما ستتجلى فيه ملامح محلية هذا الشعر هو الموضوعات التي ستعالج ضمن تلك الأغراض، أو بعبارة أدق في مضامين تلك الموضوعات كما سنحاول الوقوف عند ذلك في ما يلي:

### 1.2. ملامح الطبيعة المحلية وبعض مظاهر الحضارة في الشعر الأندلسي:

شغل موضوع الطبيعة كثيرا من شعراء الأندلس، لكن هذه الطبيعة التي فتنتهم فهاموا بها وتعلقوا بها تعلق المحبوب بحبيبته هي طبيعة بلادهم الأندلس؛ بعناصرها المختلفة ومناظرها السالبة للألباب.

وهناك عدد من النماذج لشعراء الفترة التي تعنينا تتجلى فيها طبيعة الأندلس بوضوح وترتسم فيها السمات المحلية لبيئة الشاعر كما هي الحال في الأبيات التالية

لعبد الرحمن بن عثمان الأصم الذي قضى القسم الأكبر من حياته في القرن الثالث وتوفي في 335 هـ، قال[1]:

أرى المُهْرجان قد استبشرا غداة بكى المُزن واستعبرَا
وسربلت الأرض أفوافَها وجَلَّلت السندسَ الأخْضَرَا
وهَزَّ الريـــاح صَنَـــابيرَهَا فَضَوَّعت المسْكَ والعـنبَرا
تهادى به الناسُ ألـطافَهم وسَامى المُقـــلُ به المُكْثرَا

إنَّ التعبير عن مشاركة الإنسان الطبيعة بهجتها في يوم المهرجان تُفصح عن نفسها بنفسها من خلال هذه الأبيات، فكأني بالشاعر يصور ما يجري حقيقة في واقع حياة الأندلسيين الذين لم يكونوا يفوتون فرصة الاستمتاع بجمال طبيعة كالطبيعة التي ينقل إلينا الشاعر مشهدًا من مشاهدها في يوم خاص هو يوم المهرجان، فقد أرسلت السماء الدمع مدرارًا أعقب ذلك تَجَلُّلُ الأرض بأبهى حُللها وأزهاها، وغازلت الريح اللطيفة أنوارها وأورادها فجاءت بأزكى الروائح وأطيبها، فإذا بالناس يقبلون على أزهارها يتهادونها ويُتحف بها بعضهم بعضا: إنها صورة من الصور التي نقلتها لنا المصادر عن علاقة أهل الأندلس بطبيعة بلادهم، ولعلنا نلمس ابتهاجَهم بها وتجاوبهم مع فتنتها من خلال الموسيقى الراقصة المرقصة التي وفرتها للأبيات لغتها السلسة، وما تخللها من حروف المد التي أكثر منها الشاعر كثرة ملحوظة، إضافة إلى اعتماده الروي المطلق المفتوح فتظافر كل ذلك مع موسيقى بحر المتقارب الذي صيغت فيه الأبيات، وهو بحر كما أحَسَّهُ المجذوب طبلي الموسيقى يمتاز بنغمته الواحدة المتكررة (فعولن)، وبما فيه من الدندنة وتدافع النغم[2].

إن ما رَسَمَتْهُ الأبيات هو صورة من صور علاقة الأندلسيين بطبيعة بلادهم وضربٌ من ضروب الاحتفاء بها والاستمتاع بمباهجها.

النموذج الآخر الذي نقدمه لتلون الشعر العربي في الأندلس باللون المحلي هو الأبيات الآتية لإسماعيل بن إسحاق المعروف بالمنادي[3] وفيها يقول[4]:

وحاكت له الأنداء وَشْيًا مُنمنمَا كَأَنْ نَظْمُهُ منْ فاخر التبر والدُرّ
تخـــالُ به نـــورَ الربيع كواعـــبًا عليها أكاليلُ اليواقيت فالشّـــذْر
إذا ما نسيم الريح هبَّت بصحنه فَملْنَ كما مال النزيف من السكر
يعانقُ بعـــتتضٌ بعضَهُنَّ تأودا تَعانُقَ معشوقين كانا على هَجْر

ويسقين دمْعًا من عيــون كأنها عيونُ مهًا يُرْعدْنَ من شدَّة الذعر

هذا روض من الرياض الأندلسية الغناء التي تقدم الحديث عن كثرتها في الأندلس استوقف الشاعر فراح مفتونا بجماله يتأمل أنوارَهُ وأزهارَهُ المنتظمة في تناسق عجيب أبهَرَهُ وخَلَّب لُبّه وَوَقعَت نَفسُهُ في إسَاره فتمثّل له مشهدَهُ لحظتئذ "وشيًا منمنمًا" لما تخللَّهُ من ألوان النور والزهور، فَمثْلُه في هذه الحال مثل ثوب منسوج من ألوان شتى تمتع العين وترتاح لها النفس ويطرب لها القلب، وكيف لا تنجذب العين ولا تمتلئ النفس حبورًا أو القلب طربًا لما هو منظوم من فاخر الذهب والفضة ونادر اللؤلؤ؟

لا عجب وهو يعيش حالة انجذاب أشبه بالانجذاب الصوفي أن تَتَمثَّل له نور الربيع جوارٍ وقد نهدت أثداؤهن وعلى رؤوسهن عمائم مطرزة بفرائد الياقوت واللؤلؤ تفصل بينها قطع من الذهب. وإذا ما مال بها النسيم يُمنة ويُسرة رأيت في حركتها تمايل من ذهبت الخمر بعقله وأخذ منه السكر مأخَذَهُ فكذلك نور هذا الروض لا يُقَاومنَ نسيم الريح، فهن يملن مَيل مُتَرَنّح حيث يميل بهن، فيدنو بعضهن من بعض ويتعانقن مثلما يتعانق من شدة الشوق ولهب الحب حبيب ومحبوبته بعد قطيعة أذكت نيران الوجد في نفسيْهما. وقد بدت له قطرات الندى المتساقطة من أكمامها المتفتحة دمعا يذرفنه من أعين شبيهة بأعين بقر الوحش في حركاتها عندما تروّعُ وتمتلئ نفسها فرقًا وفزعًا من شدة ما دهاها.

لا يمكننا أن ننكر محلية عناصر هذا المشهد التي انتزعها الشاعر من محيطه البيئي ذي المكونات الطبيعية التي وقفنا عندها من قبل، والمشهد نفسه مشهد أندلسي بامتياز بناء على ما حفظته لنا المصادر من مشاهد للرياض والبساتين التي كانت تزخرُ بها هذه البلاد. وما نُحّسُه في الأبيات من هُيام الشاعر بهذا الروض هو صورة أيضا من هُيام أهل الأندلس بطبيعة بلادهم، هيام وقف عنده بعض القدماء كما بعض المحدثين، ونعتقد أن بطرس البستاني في كلامه الآتي يعبر عن مثل هذا التعلق الذي تعلقه إسماعيل بن إسحاق المنادي بهذا المنظر الطبيعي الأندلسي، قال البستاني: "والأندلسي أشغف الناس بالطبيعة وألصقهم بها، لا يفتأ يتغنَّى بمحاسنها سواء كان جادًا أو لاهيا ضاحكا أو باكيا"[5].

الواقع إن محلية هذا الشعر تظهر لنا حتى من خلال ما اعتمده الشاعر من صور في أبياته، فصوره التشبيهية الحسية منتزعة من حليّ ومن أحجار كريمة لم تكن في هذا الوقت غريبة عن الأندلس الذي غالى بعض أمرائه في استقدامها، فقد سبق أن قلنا إن عبد الرحمن الأوسط جعل من بلاده أشبه ما يكون بمتحف اجتمع فيه نفيس الأشياء والذخائر وضروب الجلائب مما استقدم إليه من المشرق، ثم إن الغنائم التي كانت تصل الأندلس من الغزوات، وما أكثرها كانت تحوي ضمن ما حوته الذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد وهذا منذ أيام الفتح الأولى ثم تواصل تدفقها بعد ذلك، فضلا عن غنى البلاد نفسها بمثل هذه الخيرات وغيرها[6].

فالمنادي إذًا لم يَكُن يحلق في صوره المشار إليها خارج الأندلس، وحتى الصورة التي مثَّل بها نور الروض بجوارٍ كواعب أو تلك التي قرب من خلالها صورة ميلانها تحت تأثير نسيم الريح بتهادي مخمور فعل فيه السكر فعلته، واحتكاك بعضها ببعض عندما تهبُّ عليها الريح فتميسُ بتعانق معشوقين اتقدت في أحنائهما نار الصّبابة والهجر، فإنه كان يستمد من خَزَّان الصور الذي توفره مجالس الأنس واللهو لمرتاديها.

وإنّه ليمتد بنا الكلام إلى صفحات كثيرة لو جعلنا وَكدنا تتبع جميع مظاهر الطبيعة الأندلسية التي تحولت إلى موضوعات شعرية فتلونت باللون المحلّي سواء أتعلق الأمر بالطبيعة الطبيعية أم بالطبيعة المصنوعة، بالطبيعة الحية أم الطبيعة الصامتة أو أيضا بمظاهر حضارية أخرى عجت بها الأندلس، لذلك سنكتفي بنموذجين آخرين فقط مما استوحاه الشعراء من الحياة التي انغمسوا فيها وتمثلوها فألهمتهم شعرًا وثيق الصلة بها. النموذج الأول منهما لمؤمن بن سعيد الذي وَقَفَ وقفة إجلال أمام مَنْية كنْتُش التي أنشأها الأمير محمد[7] منبهرا بعظمتها وبجمالها الفاتن فألهمته قصيدة طويلة نُوردُ منها قوله[8]:

مَجَالسُ يُرْضي العَيْنَ إفراطُ حُسنها كأنَّ حناياها حواجـــبُ خُرَّد
على عُمُـل للدُرّ أبشـــارُ بَعْضـهَا وأبْشَارُ بعض حُسنُها للـزبرجد
وَلاَبَـسةٍ وشيًـا كـأنَّ دَقِـــيقَــهُ دقيقُ الهِشَامِيّ العتيقِ المُنَضَّدِ
وأُخرَى مقانَاةِ البيـــاضِ بِحُمرةٍ كَجَمْرِ الغَضَى في لَوْنِهِ المُتَوَقِّـدِ
على قاعِداتٍ بَعضُها فوقَ مرمــرٍ وبعضٌ على مَسنُون صَرحٍ مُمَرّدِ

وأفْيـــاءِ أبهـــاءٍ عليها مَشَـــارِفٌ يَكَادُ يُنَالُ النجْمُ منهُنَّ باليَـــــدِ
على كلِّ صِهريـــجٍ كأنَّ جِمَـــامَهُ غَدِيرُ حَيا فيه يَرُوحُ وَيَغْتَـــــدي
وسَامِقةٍ يَجْرِي السِّماكانِ دُونها ويَحْسِرُ عنها الطَّرفُ في رأسِ قَرْدَدِ

وفي جنان هذا المبنى يقول[9]:

تَحُف به جَنَّات دُنيا خِلالَها مشاربُ ماءٍ في أنابِيبِ عَسْـــجَدِ
كَأنَّ طُلى إجَّاصها حين يُجْتَنَى طُلَى كُلِّ غَيْدَاء التَّليلِ وأغْيَـــدِ
إلى أَرجاتٍ في بياضٍ وحُمْرَةٍ ضَرَائرَ للخَـــــــدِّ النَّقِيِّ المُوَرَّدِ
ورُمَّانِ أَغْصَانٍ تميسُ كأنَّها ثدِيُّ دُمًى أَمسَيْنَ في الرَّيطِ نُهدِ
وسَوسَنِ آذارٍ كأنَّ جَبينَهُ نُحُورُ العَذارى في المُلَاءِ المُجَسَّدِ
يُوَافِيك فيه الوَرْدُ غضًا كأنه خُدُود عَذارَى مُوفياتٍ بِمَوعْدِ

في هذا الوصف لم يكد يغادر الشاعر شيئا مما وقعت عليه عينه في المظهر الخارجي للبناء إلّا أتى على ذكره، تعبيرا منه على جماله وعظمته اللذين أبهراه ومَلَكَا عليه حاسة بصره الذي لم يقو على تحويله عن هذا البناء الشامخ الذي استحق منه هذا التتبع الدقيق لما أضفى عليه هذا الشموخ الذي أسر قلبه، فقد وصف حناياه التي بدت له في صُورةِ حواجب الغيد الحسان، ونعت أعمدته التي اختار مهندسه لبعضها الأبيض الناصع لونا فظهرت وكأنها مرصعة بالدر، في حين جلّل بعضها الآخر بالأخضر الذي أسبغ عليها لون الزُّمُرُّد لجمال خضرته، وثالثها يخالها الرائي مرتدية وشيًا فاخرا لالتقاء مزيج من الألوان فيها، وأما الصنف الرابع منها فاختلط فيها البياض بالحمرة فبدا كنارٍ أوقدت في شجر الغضى الذي يتميز جمره بشدة توجهه وبلونه الذهبي. وقد رُفِعَ بعضُ هذه الأعمدة على حاملات كأنها مشيدة فوق المرمر لما يتهيأ لك من ارتجاجها كأنها امرأة مرمورة**، وبعضها الآخر مرفوع على أرض مسنونة مملسة. ثم نقل بصره إلى ما أقيم في أبهاء المِنية الظليلة من أماكن عالية تكاد تناطح النجوم لفرط ارتفاعها، ومنها وقعت عَدَسَتُهُ على صهاريجها وما يتدفق منها من ماءٍ يتجمع على هيئة الغدران التي تتكَوَّن عقب تساقط الأمطار وتشده المنية مرة أخرى بعلوّها الذي لا يضاهى حتى إن الكوكبين النيرين المسميين بالسّماكين لا يجريان إلا دونها، لذلك فإن المرء إذا ما رام رؤية قمتها فارتقى جبلا فإنه سيعود خائبا، لأن التعب سينال من بصره قبل أن يبلغ مراده وما هو ببالغه.

بعد أن أجَال الشاعر بصره في هذه الجوانب من البناء انعطف على ما يحفه من جنات فيها من الأنوار والأوراد وكل ما يروق العين، ومن الفواكه ما تشتهيه الأنفس، مستلهما في وصفها مفاتن المرأة، فاستعار للسوسن جبينا شبه بنحور العذارى وشبه الورد في جمال لونه بتورُّد خدودهن عند اللقاء. أما ما في هذه الجنات من إجاص طيب المجتنى فاستعار له أعناقا كأعناق الغيد والغلمان، وأما أرَجها بلونه الأبيض والأحمر فلم ير فيه سوى ضرائر لخدود حسان صافية علتها حمرة. ورمانها في تمايله في أغصان شجره بدا له صنو أثداء فتياتٍ بادية من ريطها. ولم يفته قبل وقوفه على ما زخرت به جنات المنية من أنواع الزهر والفاكهة أن يتملأ في الماء الذي يَصِلُ إليها في أنابيب من ذهب ليسقيها فأضفى عليها هذا السحر وهذه النضارة.

واضح من هذه الأبيات أن موضوعها مستلهم من واقع الشاعر ومما عايشه، فهذه المنية وهي من نوع الطبيعة المصنوعة إنجاز أندلسي يتماشى في فخامته وفي أبهته مع ما عرفته الأندلس في هذا العهد من حركة عمرانية كبيرة، ومع الميل إلى تفخيمها والحرص الشديد على إتقانها والتأنق في تجميلها وتزيينها بكل ما يزيد في أبهتها، فإذا كان عبد الرحمن الأوسط "هو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل (...) وكسى الخلافة أُبهة الجلالة، فشيَّد القصور وجلب إليها الماء وبنى الرصيف وعمل عليه السَّقائف وبنى المساجد والجوامع بالأندلس (...) وفخم ملكه"[10] فإن ابنه محمدا كان "مجبولا على حب البنيان مشغوفا بتشييد مبانيه مستنبطا لآلاتها مختارًا لصناعها، مبالغا في إتقانها ساخيا بالإنفاق عليها"[11].

ومعنى هذا أن محلية الموضوع الذي تناوله الشاعر شيء لا مراء فيه، فهي من الوضوح الذي لا يُسَوّغُ طرحها للمجادلة. والترافق بين الطبيعة المصنوعة والطبيعة الطبيعية مما يعزز هذه المحلية، لأن الجنان التي تحف بمثل هذه المباني ليست شيئا مجلوبا أو مفتعلا إنما هي جزء من حياة الشاعر حوّله إلى موضوع فني، ثم إن الصور التي اعتمد عليها في نقل هذا الصرح وتحويله إلى نص لغوي فني مادتها الأولى مما شاع في الأندلس من معادن نفيسة وأحجار كريمة، وهي أشياء تقدم الحديث عنها. وما أخاله فرقًا بين هذه الصور والصور المألوفة في الشعر القديم (الجاهلي خاصة) أن الصور الموروثة كان فيها جيد المرأة غالبا يشبه بجيد الظبية أو الغزالة أما في ما كنا بصدده فإن جيد المرأة أصبح مشبها به لا مشبها؛ فالشاعر في الأبيات السابقة

استعار للإجاص جيدا كأجياد النساء، وشبه الرمان في شكله بأثدائهن البادية من خلال ريطها، وشبه حنايا البناء بحواجبهن، وجعل للسوسن جبينا يشبه في صفائه وملاسته نحور العذارى، والورد أضحى شبيها بخدودهن وقد وفَّين بوعد للحبيب فاحمرت وُجناتهن عند اللقاء من فرط الخَفَرِ والحياء. هكذا أمدت المرأة الشاعر في قصيدته هذه بكثير من الصور جَرَتْ غالبا على التشبيه الحسي الذي كان لحاسة البصر منه النصيب الأوفى، لأن موقف الشاعر كان موقف المندهش بأبهة وفخامة الصرح الماثل أمامه.

ولا يطعن في محلية هذه الصور كون الشعر المحدث بالمشرق قد سبق إلى ما يماثلها، لأن المرأة والطبيعة كانتا متداخلتين في ذهن الشاعر الأندلسي، فحضور المرأة الدائم في الطبيعة في ما كان يُعقد على مسرحها من مجالس أنس كان يتخللها شيء غير قليل من اللهو، كالغناءِ والموسيقى والشراب هو في تقديرنا مِمَّا يفسِّر التداخل الذي أشرنا إليه وما رأيناه من تقريب جمال الطبيعة من خلال مفاتن المرأة، وهو ما يمكن أن يسمح لنا بالقول: إن الصُوَّرَ التي حاولنا تتبعها في الأبيات محلية المصدر وغير غريبة عن فضاء الأندلس في هذا العهد (القرن الثالث الهجري)، وهي غير أجنبية عنه أيضا من حيث طابعها الزخرفي الذي كان التركيز فيه بيِّنا على حاسة البصر خاصة، فهي من هذه الناحية المعادل الفني في النص للزخرفة الماثلة في المبنى والتي تواجه حاسة البصر. وازدحام هذه الصور في الأبيات هو النظير لازدحام الزخرفة نفسها في الصرح الموصوف، زخرفة كانت مظهرا من مظاهر العمارة الأندلسية عامة في الحقبة التي نتحدث عنها وفي حقبٍ أعقبتها[12].

إذا كان الدكتور إحسان عباس قد رأى في مثل هذه الصور المنتزعةِ عناصرها من الأحجار الكريمة ومن المعادن النفيسة جمودًا[13]، فإننا نرى فيها مظهرًا من مظاهر محلية الصورة، لأنها تعبر عن مرحلة حضارية كان الذوق فيها كَلِفًا بمثل هذه الزخرفة لا في الشعر فحسب إنما في الحياة العامة نفسها، ففضلا عن عمارة أهل الأندلس التي أشرنا إلى ما غلب عليها من زخرفة فإن أنواع الثياب التي كانوا يؤثرونها وأوانيهم حظيت هي الأخرى بنصيبها من هذه الزخرفة، ومعنى ذلك أن تلك الصور تعد تعبيرا عن روح العصر وعما طفحت به مخيلات الشعراء من مشاهد طبعت عصرهم وغلبت عليه، فإذا ما راقهم منظر وأرادوا نقله إلى الناس كان من

وسائلهم تلك الصور التي أضحت مركوزة في خواطرهم وفي ضمائرهم الفنية والتي يتجاوب معها جمهورهم، وأصبحت مطلبا من مطالبه في الفن مثلما هي الزخرفة مطلب من مطالبه في مبانيه وفي لباسه وأوانيه، وهي تعبير عن ارتباطه بحضارة عصره وانخراطه فيها، وهي كذلك بالنسبة إلى الصور التي لم ترق الدكتور إحسان عباس لاستيحاء عناصرها من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة التي جعلت منها صورا "جامدة" مظهرٌ من مظاهر محليتها وانبثاقها من رَحِمِ عصرها.

النموذج الذي نختم به حديثنا عن النقطة التي نحن فيها هو لأحمد بن عبد ربه الذي قضى أزيد من نصف قرن من حياته في المائة الثالثة للهجرة[14]، فعاصر من أمراء الأندلس الأمير محمد (238- 273 ه) والأمير منذر (275- 300 ه)، بمعنى إنه نشأ وكبر ونضج واشتد عوده واكتملت له أدواتُه الفنية في خِضَمِّ التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي في كثير من جوانبه، فغرف من منابعه وشرب وارتوى حتى الثمالة، فكان "متصلا بأحداث عصره في السياسة والاجتماع والحياة... وكان شعرُهُ صورة لشخصه كما كان صورة عن عصره"[15].

قال ابن عبد ربه في وصف آلة من آلات الطرب المرافقة للغناء[16]:

يَا رُبَّ صوتٍ يَصُوغُه عَصَبٌ ... نِيطَتْ بساقٍ من فوقها قَدَمُ
جَوْفَاءُ مَضْمُومَةٌ أصابِعُها ... في ساكناتٍ تحريكُها نَغَمُ
أربعَةٌ جُزئت لأربعةٍ ... أجزاؤها بالنفوسِ تَلْتَحِمُ
أَصغَرُها في القُلوب أكبرُها ... يُبعَثُ منه الشفاء والسَّقَمُ
إذا أرنَّتْ بِغَمزِ لافِظِهَا ... قلتَ حَمَامٌ يجيبُهُنَّ حَمُ
لها لسانٌ بكَفّ ضَارِبِهَا ... يُعربُ عنها وما لهُنَّ فَمُ

إن هذا العود الذي يصفه ابن عبد ربه من المعازف التي تُعد مظهرًا من مظاهر الحضارة التي احتفى بها الأندلسيون أيمَّا احتفاء، لا سيما منذ مجيء زرياب الذي أحدث ثورة في الغناء وفي بعض آلاته في هذا البلد، فقد زاد "في أوتار عوده وترًا خامسًا اختراعًا منه (...) فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة (...) وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر، مُعتاضًا به من مرهف الخشب، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه"[17]، ومع أن ميلاد ابن عبد ربه كان بعد وفاة زرياب (ت 238 ه)

فإنه رأى النور والحركة الغنائية -كما قدمنا- مصطخبة من حوله في النوادي وفي مجالس الأنس واللهو التي كانت تعقد في الدور والقصور وحتى خارجها في الجو الطلق في البساتين والرياض، فمن الطبيعي إذًا أن يستوحي من هذا الجو الطرب بعض موضوعات شعره[18] كما هي الحال في أبياته التي أثبتناها، وهو الذي كان لديه شغف بالغناء كما يفهم من قصته مع عمر بن قلهيل عندما استوقفه طيب غناء جاريته مصابيح، فدنا من باب داره فَصُبَّ عليه من العلية ماء بلَّ ثيابه فحَزَّ ذلك في نفسه فَخَاطَبَهُ بشعر منه هذان البيتان[19]:

يا من يَضِنُّ بصوت الطائر الغَرِدِ ما كنتُ أحسبُ هذا الضـــنَّ من أحدِ

لَوْ أنَّ أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يَزِدِ

ولما وَصلتهُ الرقعة وقرأ الأبيات خرج إليه حافيا وأدخله إلى مجلسه فتمتع من سماعِها.

فالموضوع الذي خاض فيه ابن عبد ربه في أبياته السابقة مصدره إذًا حياته، أو قُلْ الحياة الاجتماعية الأندلسية المصطخبة من حوله، وهي الحياة التي اصطبغت بها حياته الشخصية بعض الاصطباغ، فوقوفه عند دقائق هذا العود وما يرسله من أنغام عذبة رخيمة تستطيبها النفس وتطرب لها عندما تُداعِبُ أصابع العازف أوتاره التي يتصل كل واحد منها بجانب معين من جوانب النفس والمركبة في آلة جوفاء فارغة الوسط، حتى لتخال أنغامها الشجية هذيل حمام يرد عليه حمام ثانٍ، أقول إن وقوفه على هذه الأشياء في هذا العود أو في هذا المظهر الحضاري دليل في تقديرنا على طابعٍ محلي تجلَّى في هذا النموذج من نماذج الوصف في الشعر العربي في الأندلس في المائة الثالثة للهجرة، فليس من الموضوعية في شيء الزعم أن الشاعر كان يستوحي فيها (الأبيات) عوالم شعرية غير عالمه الشعري المتعدد العناصر والمصادر[20]، ولكنها نُسجت وانصهرت في ذات شَبَّت وترعرعت في أفق حضاري جديد وَسَمَهَا بِمَيْسَمِهِ فأعطَت ثمارًا أندلسية الطعم واللون[21].

### 2.2. ملامح المحلية في الخمريات الأندلسية:

لا يُختلف في أن موضوع الخمر من الموضوعات التي ورثها الشعراء المحدثون المشارقة قبل الأندلسيين عن أسلافهم، وأن هذا الفن الشعري عند الجاهليين اقترن بمعاقرة الخمر التي كان يرى فيها كثير منهم مظهرا من مظاهر الفتوة والفروسية،

وقولنا بوراثة المحدثين هذا الموضوع عمن تقدمهم لا يعني أنهم كانوا يصفون شيئا لا صلة له بحياتهم، فقد عاقروا الخمرة هم الآخرون إلى حدِّ الاسراف أحيانا حدث ذلك في المشرق وفي الأندلس أيضا. هذا التهالك على الخمر استتبع عناية خاصة بها من الشعراء في الصقعين، خاصة أن عددا كبيرا ممن عُنُوا بوصفها أقبل على شربها إقبالا شديدًا، فالمصادر الأندلسية تقدم لنا أمثلة لطائفة مهمة من شعراء الأندلس نَحُوا هذا المنحى في حياتهم وعبَّروا عنه في أشعارهم[22]، لذلك يقول بالنثيا "وكانت الخمريات أكثر فنون الشعر ذيوعًا بين شعراء الأندلس، وكانت عادة الشّرب أن يجتمعوا على الكؤوس في البيوت أو الرياض أو على ضفاف الأنهار كالوادي الكبير وأبره"[23].

إن كلام بالنثيا يُلفت النظر إلى شيء مهم سيكون له دوره في صبغ شعر الخمر في الأندلس بصبغة محلية؛ فمجالس الخمر لم تعد تُعقد فقط في دوائر مغلقة بعيدا عن الأنظار كالبيوت والحانات، إنما أصبحت تقام أيضا على الطبيعة التي أضحت مسرحا لها وهو ما يفسر لنا ظاهرة الجمع بين وصف الخمر ووصف الطبيعة، بل إن وصف الطبيعة كثيرا ما غلب على نعت الخمر ذاتها في الشعر الذي اتجه فيه الشعراء إلى وصف مجالسها، حتى لكأن صفات الخمر لم تستحوذ على نفوسهم استحواذ الطبيعة بها، وهذه خاصة مهمة ومحلية في شعر الخمر عند الأندلسيين، فهي تكشف لنا من ناحية عن أثر الطبيعة في هذا اللون من الشعر وتوضح لنا من ناحية أخرى كيف ضاق مجال النزعة الوصفية في شعر الخمر في الأندلس. ونحسب أن هذه الظاهرة بالصورة التي وُجدت فيها في هذا الشعر جديدة[24]، وأنها تعبر عن درجة تعلق أهل الأندلس بطبيعة بلادهم، وهذا ما استدعى كما مرَّ ذكره وجود تلك الدعوات التي كان يوجهها بعضهم إلى بعض لحضور مجلس أنس أو للإغراء بعقده في رحاب الطبيعة، وما يلحظ في ما يخص هذه الدعوات التي كانت شعرية أحيانا أن الشاعر لا يُعني فيها بوصف الخمر ليغري بنعتها أصحابه إنما يُعنى أكثر ما يُعنى بوصف الطبيعة[25] التي حركت في النفس الرغبة إلى عقد مجلس شراب، فالأمير عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط) يكتب إلى نديمه ومنجمه عبد الله بن الشمر يدعوه إلى مجلس شراب فيصرف همه إلى وصف الطبيعة ولم يذكر الشراب سوى بإشارة عامة، قال[26]:

ما تراه في اصطباحٍ وعُقُودُ القَطْرِ تُنْثَرْ؟

ونسيم الروض يختا لُ على مسك وعَنْبَرْ
كلما حـــاول سَبْقـــاً فَهْوَ في الرَّيْحَانِ يَعثُرْ
لا تَكُن مِهْمَالةً واسْـ بقْ فما في البُطْءِ تُعْذَرْ

هناك عدد من النماذج لم يمنح فيها أصحابها كبير اهتمام لوصف الخمر التي تدار بينهم إنما يأتي ذكرها فيها عرضا، وترى عناية الشاعر مُنصرفة للطبيعة التي ستدار عليها وحولها الكؤوس، مثلما فعل محمد بن إبراهيم بن الحسين المعروف بالمهزلة (ت 305 هـ)، ففي حين يبدو من البيت الأول في المقطوعة أنه منصرف إلى وصف الخمر وكؤوسها التي يسعى بها بينهم غلام فاتن، إذا بالكواكب التي تزين السماء تُلفتُه عنها فينبري في وصفها، قال[27]:

وسعى علينا بالكؤوس مُنطـــــقٌ أجرى دمي فأعاض راحًا من دم
حتى بـــدا لي المشتـــري وقرينـــه المريخُ يرفـــــلُ في غلالةِ عَنْدَم
قال النديم فصفهما قلت: استمع رمحان كفَّيْ كميٍّ مُعْلَـــــــــم
تبعَ الكـــــميُّ بذا فأخطا طَعنَـــهُ وأصابـــــهُ هذا ففيه دمُ الكمي

من البيِّن من خلال اهتمامه بكوكبي المشتري والمريخ والهيئة التي ظَهَرَا عليها في السماء وكما تخيلهما الشاعر أن مجلس الشراب الذي جمعه مع نديمه أو ندمائه جرى في ليلة مشرقة توارى دُجاها مع ما أرسلته السماء من ضياء فأضفى ذلك على المجلس بهجة ضاعفت من سرور الشاعر بخمرته فلم يجد بُدًا من الوقوف عند مصدر هذه البهجة فبدا وكأن جمال الطبيعة هو ما يعنيه في وصفه، لذلك فإن ابن الكتاني أورد هذه الأبيات بعنوان "باب من التشبيهات في السماء والنجوم والقمرين"[28] لإدراكه أن عناية الشاعر في مقطوعته انصرفت إلى نعتِ الكوكبين "المشتري والمريخ" أكثر من عنايته بصفات الخمرة التي امتلأت بها كؤوس الشّرب.

وهناك ملمح محلي آخر نلمسه في وصف الخمر أيضا، ويتعلق بما نراه في بعض نماذجه من ميل إلى استعارة صفات الخمر من عالم المرأة، خلافا للقدماء الذين كان دأْبُهُم تشبيه ريق المرأة في حلاوة طعمه بالخمر، لأن الخمر كما يقول جميل سعيد كانت واضحة الصورة لديهم، فاعتمدوا عليها في جلاء غيرها من الصور[29]. ومن نماذج هذا التحول الذي حدث في نعت الخمرة في الأندلس في المائة الثالثة ما نراه عند محمد بن إسماعيل النحوي، فهو يشخصها فيستعسر

لها الابتسامة والزهو ثم يشبّهها وقد صُبّت في الكأس وطفا حبا بها فوقها بغادة تُبدي ما تزينت به من عقود وأسورة، قال[30]:

فتبسَّمت منه إليك مُدامةٌ كالبرْقِ لاح بظلمـــــة فأنارها
وكأنها لما زَهَـتْ بِحبَـــابِها خَوْدٌ تريكَ عقودها وسوارَها

أما المهند فيصورها تصويرا طريفا في أثناء مزجها بالماء، فقد تصورها غادةً رِيعت ففاضت دموعها على خدها الذي اختلطت فيه الصفرة بالحمرة، قال[31]:

يُرَوِّعها الماءُ في الياقوت بارزة فيبرزُ التِّبرُ منهـــــا منظرًا بهَجَا
كأنها خَدُّ خود فاض مَدمعُها من روعةٍ فكسا بالصفرة الضرجَا

إن صورة الخمرة وقد خالطها الماء في كأسها أثارت في ذهن الشاعر صورة فتاة حسناء ناعمة والدموع تجري على خديها من شدة الفَرَق، وهي صورة على غاية من الطرافة استوحاها مما كانت تحفل به مجالس الشراب من جوارٍ يسبي حسنهنَّ الألباب.

أما المقطوعة الآتية لابن عبد ربه فيوهمنا بيتها الأول أن الأمر يتعلق بامرأة مُضَمَّخَة الثياب والجسد بأنواع الطيب وبالزعفران خاصة، فانبعثت منها رائحة تستطيبها النفس هي مزيج من أنفس أصناف الطيب، وَوَسَطُ رأسها في الموضع الذي يُفرقُ فيه الشعر مُغطى بما يشبه بياض الشيب عند أول ظهوره، فالمعجم الذي استخدمه الشاعر في هذا البيت حقله الدلالي ذو علاقة قوية بعالم المرأة، وقد استعمل ذلك كله ليكني عن طيب الرائحة التي تنبعث من خمرته وعما يعلوها من زبد.

ويعود في البيت الثاني إلى استيحاء عالم المرأة مجددا لتقريب الصورة التي تجلَّت فيها هذه الخمرة من خلال الكأس الذي صبت فيه، فطلعتها في هذه الحال شبيهة بطلعة جارية عذراء ترفل في برود من حرير، قال ابن عبد ربه[32]:

ورادعةٍ بأنفاس العبـــير مُقَنَّعةِ المفارقِ بالقتـــــيرِ
جَلَتْهَا الكأسُ فاطَّلعَت علينا طلوعَ البكرِ في حُلَلِ الحريـر
كأنَّ كؤوسهَا يحملـــن منها شُموسًا أُلبِسَتْ خِلَعَ البدور
كأنَّ مزاجَها لـمَّـا تجَلـــَّت بصحنِ زُجاجها نارٌ بنـــــور
كأنَّ أديمها ذَهَبٌ عليـــــه أكاليلٌ من الدّر النثيـــــــر

واضح أن الشاعر لم يخرج إلى انتزاع صور خمرته من أشياء أخرى مما له صلة بمحيطه أيضا إلَّا بعد التقريب بين صفاتها وصفاتٍ استوحى فيها عالم المرأة بعطوره ونفيس ثيابه وبعضٍ من صفات جسد الأنثى.

إن هذه الظاهرة الفنية وإن عُرفت في خمريات المحدثين المشارقة في الأعصر العباسية، فإن وجودها في خمريات شعراء الأندلس في الأفق الزمني الذي يعنينا لم يكن تقليدا ومحاكاة لغيرهم، إنما هي من نتائج التحول الذي عرفه مجتمعهم الذي غزت على إثره الجواري والقيان المغنيات مجالس اللهو والأنس وتطورت معه الأذواق وتغيرت النظرة إلى الحياة، خاصة أن تلك المجالس التي كان سقاة الخمر فيها في الغالب من الغلمان والجواري الحسان كانت كما تقدم ذكره تعقد على الطبيعة الغناء، فعبر الشعراء في أشعارهم عن تلازم بين الطبيعة والمرأة والخمر على نحو ما نلمسه في قول ابن عبد ربه[33]:

اشرب على منظر أنيقٍ وامزُجْ بريق الحبيب ريقي

وهناك ظاهرة أخرى في الخمريات الأندلسية نحسبها من إفرازات ثقافة سادت بقوة في الأندلس، وهي الثقافة الدينية والثقافة الفقهية منها، خاصة بالنظر إلى أن سوق الفقه كانت نافقة في هذا البلد فاستوحى بعض الشعراء بعضا من معانيه في نعت الخمر، كصنيع محمد بن إبراهيم بن الحسين المعروف بالمهزلة الذي وظّف في وصفها معنى استوحاه من باب الطهارة في الفقه، والطهارة كما هو معلوم من شروط الصلاة الصحيحة، قال في هذا المعنى[34]:

ومُدامةٍ حمراءَ نصرانَّيةٍ زهراءَ جاء بها نديمٌ أزهرُ
صَبُّوا عليها الماء حتى خلتها لما أتَتْهم مُسلِمًا يتطَهَّرُ
حمراءُ تَرجِعُ ضِدَّها بمزاجها فكأنَّ فيها عاشقا يتسَتَّرُ

والطلاق من الأبواب الخطيرة في الفقه أيضا، فقد وجدت معانيه ظلالًا في وصفها، فيحي الغزال (ت 250هـ) دخل خمارة فسأل صاحبها أن يذيقه شيئًا من خمره فلَبَّى طلبه، فأخذت الخمر بمجامع قلبه وسَلبته عقْلهُ لجودتها فقايض صاحبها فيها بردائه وطلب منه بذلة يستتر بها استرخص فيها طلاق نسائه، قال[35]:

فَلَمَّا أتيتُ الحان ناديت رَبَّهُ فثابَ حفيف الروح نحو ندائي
قليلَ هجوعَ العين إلّاَ تعِلَّةٌ على وجَلٍ مني ومن نُظَـــــرَائي

فقلتُ أذِقنيها، فلما أذاقـــها طرحت عليه ريطـــتي وردائي
وقلتُ أعِرني بذلة أستترْ بـــها بذلتُ له فيها طلاق نســـائي
فو الله ما برَّتْ يميني ولا وَفَتْ له، غير أنّي ضامنٌ بوفـــائي

إن الشاعر أفاد في هذا المقام من المعنى الفقهي الذي أشرنا إليه في التعبير عن كلفه وشدة هيامه بهذه الخمر التي لم يكد يتذوقها حتى طارت نفسه شعاعا لما توافرت عليه من صفات ترقى بها إلى مَصَفِّ أجود الخمور. فإذا كان الأعشى قديما قد قايض الخمار بإبله إغلاءً في سومة الخمر التي كان يشربها[36]، فلأنّ الإبل كانت عزيزة عند الجاهليين، أما يحي الغزال فوظف في التعبير عن صنف الخمر التي يتحدث عنها معنى الطلاق، لأن الطلاق أمر عظيم في الإسلام فهو من أبغض الحلال عند الله عزَّ وجَلَّ، ولذلك وجد فيه خير ما يستدل به على الجودة العالية للخمرة التي يشربها، فالغاية واحدة عند الأعشى وعند الغزال، فكلاهما أراد أن يفاخر بميزة نادرة في خمرته، لكن التعبير عنها اختلف باختلاف القيم بين مجتمعي الشاعرين، وهو ما يجعل أبيات الغزال وثيقة الصلة بمجتمعه وبقيمه الثقافية والدينية. وقد بدا هذا الملمح المحلي بُدُوًّا أوضح في أبيات لابن عبد ربه اصطبغت بثقافته الفقهية، قال[37]:

وافْتَضَضْنَا من العواتق بكرًا نُكِحَتْ أُمُّهَا بغير صـــداقِ
ثم بانت ولم تُطلَّـــقْ ثلاثا لم تَبِن حرـــةٌ بغير طلاق
دِينُنا في السَّماع دينٌ مَديـــن يٌّ وفي شُرْبِنَا الشراب عِراقِي

إن تأثر هذا الوصف بثقافة الشاعر الفقهية[38] بيّن، ففيها حديث عن النكاح وما يستوجبه من صداق، مع إشارة إلى ما كان يذهب إليه المذهب الفقهي المالكي السائد في العراق من تحليل النبيذ من بين الأشربة، على هذه الشاكلة ألقت ثقافة الشاعر الفقهية ظلالها على أبياته هذه في نعت الخمر.

نحسب أن المظاهر التي حاولنا الوقوف عندها في النماذج التي أثبتناها لوصف الخمر في الشعر الأندلسي في الحقبة التي تعنينا كفيلة بتأكيد حضور سمات المحلية فيه وأن الشعراء كانوا يصدرون فيه عن ذواتهم التي تفاعلت مع مجتمعهم وتمثلت القيم التي صاحبت التحول الذي حدث فيه، فعبروا عنها كما عاشوها وأحسُّوها بعد أن أصبحت مكونا من مكونات ذواتهم وجزءًا لا يتجزأ منها.

### 3.2. سمات محلية في بعض موضوعات الهجاء:

تقدمت الإشارة عند الحديث عن مهيئات التحول إلى أن بنية المجتمع الأندلسي عرفت في المائة الثالثة للهجرة تغيرا واضحا في تركيبتها، إذ أصبحت تتألف "من أمشاج من العناصر صحبها تنوعٌ في العلاقات الاجتماعية"، وترتب عن ذلك أن تغيرت علاقة الفرد العربي بالمنظومة الاجتماعية التي كانت تقف وراءه، لا سيما بعد أن أصبحت السلطة للدولة لا للقبيلة مثلما كانت عليه الحال في المجتمع القبلي القديم، لذلك كان من الطبيعي أن يضعف أو يتوارى تأثير عدد من القيم التي كان المجتمع البدوي يعض عليها بالنواجد لتفسح المجال لقيم جديدة ظهرت مع التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي[39] على النحو الذي حاولنا أن نقدم صورة عنه في ما مرَّ من كلام. إزاء ذلك وبالنظر إلى ما للهجاء من علاقة بالمجتمع، فإنه ليس مما يستغرب أن تكتسي نظرة الشعراء في بعض موضوعات هذا الغرض الشعري طابعا يتجاوب مع التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي، فهم يتناولون المهجوَّ (عندما يتعلق الأمر بهجاء الأفراد) من حيث هو فرد غير منتمٍ إلى منظومة اجتماعية كالمنظومة الاجتماعية البدوية (القبيلة)، فتغدو القيم التي يهجا بها لصيقة بشخصه هو لا بغيره، وليست من نوع القيم التي كان المجتمع القبلي يُعلي من شأنها كالشجاعة والكرم وصراحة النسب وكرم النجار وغيرها مما كان يتوارد عليه شعراء الهجاء عند الجاهليين ومن تَقَيَّلَهم والذين لم يكونوا يأبهون بعيوب السحنة لدى المهجوِّ، لأن مذهبهم في ذلك كان كما قال قدامة بن جعفر: "إنه متى سلب المهجو أمورا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبا في الهجاء مثل أن يُنسب إلى أنه قبيح الوجه أو صغير الحجم أو ضئيل الجسم"[40].

وخلافا لهذا الذي كان سائدا عند الأقدمين فإنَّ الشعر الأندلسي يقدم لنا في الفترة التي نتحدث عنها مادة هجائية نرى فيها المقصود بالهجاء يُؤتى من جهة ما اعتبره قدامة بن جعفر "عيبا في الهجاء" وهو ما نعتبره نتيجة من نتائج التحول الاجتماعي المشار إليه، وهو الذي تغيرت معه الموازين عمَّا كانت عليه في المجتمع البدوي، فالشاعر إذا ما رام إيلام مهجوّه والتندر منه وإضحاك الناس عليه سلبه مظاهر الجمال ونسب إليه صفات القبح الخِلْقِي، وأظهره في صورة قبيحة مقزِّزة

ومنفرة، ففي موضوع هجاء اللحى يرسم لنا عبيديس بن محمود السُّمُنْتَائي[41] منظرا يُشعر بالقرف لِلَحْيةِ المسمَّى (حَجَّاج) فيقول[42]:

| | |
|---|---|
| يا من عليه للعلا تـــاجُ | إني إلى اللحية محتـــــاجُ |
| وعندكم في وشقة لحية | يحملها المائق حَجَّـــــاجُ |
| للثغر في جانبها مســرحٌ | فيه من الأنعـــام أزواجُ |
| يسيل من شاربه فوقــها | سلحٌ غزير القطـر ثجَّاجُ |
| للبقِّ في عثنونه مكـــمنٌ | ومن دبيب القمل أفـواجُ |
| إذا مشى تبصرُ أفواجهَا | كأنها في البحر أمـــــواجُ |
| يعقِدها في شعر وجعائه | فهو إذا ما شاءَ صنـــاجُ |

إن هذا المشهد القذر لِلحية المهجو كفيل أن يثير اشمئزاز أهل بلد شبُّوا كما قال المقّري على الاعتناء "بنظافة ما يلبسون و ما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومَهُ، فيطويه صائما ويبْتَاعُ صابونا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبِؤُ العين عنها"[43] ، فمثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يَشْعروا بالقرف وهم يرون لحية هذا الرجل وكأنها غابة ضخمة تعُجُّ بصنوف الأنعام والطير من كثرة ما كان يسْرَحُ فيها من بقٍّ وقملٍ يتدفَّق عليها ريق صاحبها تدفقا غزيرا، وهنا تبدو لنا العلاقة واضحة بين ذوق متحضر شديد التعلق بما هو أنيق وجميل وبين التبرُّم من مثل هذه العفونة، ومن هكذا مظهر وَسخ قبيح تتأذى به أعين تنشد النظافة والتناسق والجمال في كل شيء، ومن خلال ذلك تتجلى لنا محلية الموقف من منظر سَمِج كالذي رسمه عبيديس لمهجوّه.

ومن منطلق هذا الذوق المتحضر الشديد الكلف بالحسن وبالاتساق يطلبهما في كل ما تقع عليه العين أضحت الأنوف الضخمة المفرطة الطول إفراطا يخل بتناسق المظهر موضوعا من موضوعات الهجاء، فقد صوَّرَها الشعراء تصويرا ساخرا يثير الضحك والشفقة على أصحابها في الوقت نفسه على نحو ما نرى ذلك عند عبد الله بن كليب (ت 306 ه) يصف أنف الزهري، قال[44]:

| | |
|---|---|
| أنفك يا زهري في قبحه | كأنه في صورة البـــوق |
| يقعد في البيت لحاجته | وأنْفُهُ يمضي إلى السوق |

إن الصورة التي رسمها الشاعر لأنف مهجوّه تبرز الاختلال الكبير بين هذا العضو وبين بقية أعضاء وجهه، فضخامتُه تعادل ضخامة البوق، أما طوله فحدث ولا حرج، فلصاحبه من هذه الناحية أن يبقى ماكثا في البيت فليست له حاجة للتنقل إلى السوق لقضاء حوائجه فأنفه لطوله ينوب عنه في ذلك، فلنا أن نتصور أنفا بهذه الهيئة يتوسط الوجه! إنه يُثِير الشفقة مما يكابده حامله من معاناة ومشقة أكثر مما يثيره من سُخرية أو من تَنَدُّرٍ وضحك. وصورته من حيث حرص الشاعر على إبراز ما أحدثته من اختلال في التوازن في مظهر صاحبه تنِمُّ عن نفور الذوق الأندلسي المتحضر من هذا الضرب من المشاهد التي لا تبعث الارتياح والانشراح في نفوس شديدة الافتتان والهيام بالجمال حيثما كان سواء أكان في الإنسان أم في الطبيعة بأصنافها أو في الموسيقى والغناء أو في غير ذلك، تماشيا مع التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي فَمَسَّ من بين ما مسَّ القيم الاجتماعية ومقاييس الجمال. ومن هذا المنظور المحلي[45] المعبر عن التطور الذي عرفته الشخصية الأندلسية من حيث نظرتها إلى الحياة ومقاييس حكمها على الأشياء تناول الهجاء النقائص الخِلقِية عند المرأة أيضا، ومعلوم أن الشعر القديم كان يهجو المرأة في الغالب من الناحية التي تجلب العار لقومها، وحتى عندما تتبع بعض عيوبها الخلقية كانتفاخ بطنها واستدارة خصرها، وهي الصورة المتناقضة للمثل الأعلى في جمالها عند العرب القدامى الذين كانوا يؤثرون المرأة الهيفاء المخطفة الأحشاء الضامرة الخصر، فكان الغرضُ منه رَمْيَ قومها باللؤم والقبح المتأصلين في نسائهم[46]، وأما الهجاء الذي تناول المرأة في الأندلس واصطبغ بصبغة محلية فإنه تعرض لها بعيدا عن أية علاقة تصلها بقومها وأسرتها مثلما صنع يحي الغزال الذي هجا امرأة فأظهرها مسلوبة من أي مظهر من مظاهر الجمال التي تحمل على التعلق بالمرأة والهيام بها، فلسانها صارم، وشعرها تساقط ولم يبق منه سوى شعيرات قليلة لا تبلغ خمسًا عددًا، لذلك أخفت صلعتها البراقة بعمامة لتموّهِ حالها على الناس، وفي جنباتها نتوءات بارزة لا تخفى على الرائي، وأما كاهلها فأخذ منه الهزال مأخذه، فهو أشبه بسنام بعير أرهقه قطعُ الفَيَافِي الوعرة، قال[47]:

جَرداءُ صلعاءُ لم يبق الزمن لها إلا لســـــــــــانًا مُلِحًّا بالملاماتِ

لَطَمتُها لطمة طارت عَمَامتُها عن صلعة ليس فيها خمس شعراتِ

كأنها بيضة الشاري إذا برقت بالمأزق الضنك بين المشرفيـــــاتِ
لها حروف نواتٍ في جوانبها كقسمة الأرض حِيزتْ بالتخومـاتِ
وكاهلٌ كسنام العيسِ جرَّده طولُ السِّفارِ وإلحـــاح القتوداتِ

إن هذه المرأة كما صورها الغزال ليست من النسوة اللواتي يمكنهن أن يرقن الذوق الأندلسي، ولا من اللواتي يمثلن مطلبا من مطالبه لافتقارها لأضرب المفاتن التي تَتَوافق مع شروطه الجمالية، فهي امرأة أخنى عليها الدهر ولم يبق منها سوى الجلد والعظم وغاض فيها ماء الحياة.

بالإضافة إلى هذا اللون من التصوير المعبر عن موقفٍ يُزري بالمرأة التي لا تتوافر على ما يشترطه الذوق الجمالي المحلِّي، هناك عُنصر آخر في هذا الهجاء يؤكد مَحَلِّيتَهُ وهو ميل الشاعر في أبياته إلى الدعابة مثلما تظهر من لطمه مهجوته ليعري عن صلعتها البراقة على سبيل التنكيت والميل إلى الإضحاك، وهي ظاهرة شديدة الرسوخ في نفوس الأندلسيين خاصة شطراهم الذين لهم "من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات ما تملأ الدواوين كثرته، وتضحك الثكلى وتُسَلِّي قصته مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركّب ولا استغرب أحدٌ ما أورده ولا تعجب"[48].

ويحي الغزال نفسه كان مشهورا بالدعابة في حياته وفي شعره ولم تفارقه هذه الدعابة وخفة الروح حتى في أشد الأوقات حرجا[49]، لذلك انطبع هجاؤه بهذه الروح الخفيفة الوثابة التي لمسناها في أبياته السابقة.

وتتأكد المحلية في مثل هذه الموضوعات التي خاض فيها الهجاء مما لم يكن من اهتمام شعراء الجاهلية ومن سلك مسلكهم في هذا الغرض الشعري من خلال الاتجاه إلى هجاء المغنيات اللواتي يفتقرن للمواصفات التي يجب توافرها في من يمتهن حرفة الغناء كصفاء الصوت وحلاوته وسلاسة الأداء وكمال الخلقة وحسن الطلعة، وهي شروط وثيقة الصلة بمطالب رواد مجالس الأنس واللهو الذين لم يكونوا يكتفون بالاستمتاع بما تسمعه الأذن بل كانوا يستهدفون الاستمتاع بما تقع عليه العين أيضا كما عبروا عن ذلك في أشعارهم التي تناولوا فيها ما كان يجري في تلك المجالس من غناء وشراب[50]، ومن هذه الزاوية هجا إسماعيل بن بدر مغنية لرجل زاره هو وصحبه فوَجَدُوا أمامه خبزًا بدا من ملامح وجهه أنه بخل به عليهم، فنفس عليه

زواره بزهدهم في طعامه ولكنهم أبدوا له رغبة في سماع صوت رخيم يُطربهم، فاستجاب لطلبهم فأحضر جاريته فغنتهم، وإثر ذلك قال إسماعيل بن بدر[51]:

تنفَّسَ لما لاحظَ القوم خبـــزه وقطَّب لما لامسته الأصابـــــعُ
فقلنا له إنا شباعٌ فجُد لنـــا بعودٍ فما في القوم غيْرُكَ جائـعُ
فأسمعنا درداءَ صلعاء رجَّعتْ بصوتٍ لها تستك منه المسامعُ
فو الله ما أدري كلابٌ تهارشت بحلقومها أم نقنقت بي ضفادعُ

من البيّن أن ما ركز عليه الشاعر في هجائه هذه المغنية هو صوتها المضطرب الخشن الناجم عن ذهاب أسنانها، فَرجَّعَتْ بصوت يخيل لسامعها أن كلابا تتهارش في حلقها أو ضفادع تنقنق فيه من شدة بشاعة غنائها المؤذي للأسماع، وزاد الموقف سوءًا قبح طلعتها بسبب صلعتها وسقوط أسنانها.

إن العناصر التي حاول الشاعر من خلالها أن يرسم صورة لهذه المغنية التي لم يرُقْهُ غناؤها ومظهرها تعبر عن صدوره في أبياته عن ذوق يَمُجُّ البشاعة والقبح، ذوق أضحى سمة من سمات الشخصية الأندلسية في صورتها الجديدة بعد أن توافرت لها جملة من عوامل التحول والنمو لتغدو شخصية بهوية خاصة تَحَقَّقَ لها معها الاختلاف عمَّا سواها في عدد من الجوانب المشكلة لخصوصيتها التي أكسبتها صبغة محلية تُعرف بها.

### 4.2. ملامح المحلية في انتقاد الشعراء ظواهر سلبية في المجتمع:

سنحاول في هذا المقام أن نظهر المحلية في الشعر الذي اتجه فيه أصحابه إلى محاربة الظواهر الاجتماعية السلبية التي تعد بوجه من الوجوه من إفرازات التحول الذي عرفه المجتمع، ويتعلق الأمر بظواهر الفساد التي انتشرت فيه، ذات الصلة بعوامل داخلية خاصة، فهي غير مفصولة عن الواقع الاجتماعي الذي ظهرت فيه، فمسبباتها كامنة في نسيجه وفي تربته، فلا يمكن اعتبارها إذًا غريبة عنه أو مما اسْتُوحِي من أوساط اجتماعية أخرى، ويصدق هذا بالنسبة إلى الظواهر السلبية التي توجد في مختلف المجتمعات كالتطفل والتسوّل والمكر والاحتيال والبخل وغيرها، وهي سلوكات وظواهر اجتماعية من إنتاج المجتمعات التي ظهرت فيها، فتناولها أدباؤها مثلما فعل الجاحظ في كتاب البخلاء وغيره من مؤلفاته، وكما فعل أيضا بديع الزمان الهمذاني في عدد من مقاماته، وموليير (1622- 1673) بالنسبة

إلى المجتمع الفرنسي في "البخيل" (L'avare) أو في "المنافق" (tartuffe) أو أيضا في القصة البيكارسكية الإسبانية "حياة لثرو دي تورمس حظوظه ومحنه"[52] لكاتب مجهول؛ فالشاعر الأندلسي في الفترة التي نتحدث عنها لم يشذ عن غيره من أدباء المجتمعات الأخرى في الاهتمام بمثل هذه الأدواء التي عرفها مجتمعه فشخَّصها وانتقدها وأبدى برمه بها مُسْتمِدا مادته من واقع بلاده، فقد تناول عبد الله بن فرح ظاهرة التطفل من خلال طفيلي يعرف بابن الإمام فَصَوَّرَ تصويرا مفصَّلًا تحَسُّس هذا الطفيلي أماكن الولائم ودخل إلى نفسيته فأظهر ما يخالجه من إحساس قبل وحين يهتدي إلى وليمة من الولائم، فما تزال نفسه تشطاط غضبا إلى أن يَلُوحَ له ضباب دخان من بعيد فيحرك شهوته إلى الأكل فتقوده حاسته الشمية القوية نحو مصدر الدخان فيهتدي إليه اهتداء الضال بالنجم. فذات مرة علا دخانٌ "بشنت طولة" إحدى مدن الأندلس فعرف الطفيلي من خلاله مكان الوليمة فانطلق نحوه ركضًا مع ثلة من أهله الإماميين دون سابق دعوة، فكأنهم في ركضهم خيل صُوِّمت لإعدادها للرهان، وحتى لا تفوته أية وليمة أينما أقيمت كَلَّف بـ "بجانة" من يُنبيه بمواعيد الأعراس لحضور ولائمها، لذلك تراه دوما صبًّا للتطواف والتجوال، فلو تناهى إليه هو وأهله موعد وليمة بـ"عمان" لانطلقوا نحوها لا يلوون على شيء، وحتى زياراته أصدقاءه لا يدعوه إليها سوى ما يقدم له أثناءها من طعام. وإذا حضر هؤلاء الإماميون طعاما رأيتهم يتساقطون عليه تساقط الذباب فيلتهمونه التهامًا، ويظهر لك من بينهم كبيرهم يلتطم في لُقَمِهِ الضخمة وسيماءُ الغضب بادية عليه، مثيرا جلبة كجلبة السكران الثمل، ولا يكفيه إشباع بطنه فيملأ أكمامه تحسبا للجوع. وهذه أبيات من تشخيص عبد الله بن فرح هذه الظاهرة من خلال سلوك هذا الطفيلي وأهله[53]:

أفديكَ من مُتَوَجِّدٍ غضبـــــانِ حتى يلوحَ له ضباب دُخانِ
يقتادُهُ شمُّ القتـــارِ بأنفـــــه مثل اقتياد النجم للحيرانِ
وعلا الدخانُ بشنت بولةَ[54] مربيًا يُنبِيه أين مطابخُ الإخوانِ
فترى الإمـــاميين حولَ ركابه كالخيل صائمةً ليوم رهانِ

الملاحظ من خلال هذه الأبيات ومن خلال الأبيات كاملة كما وردت في أخلاق الوزيرين أن الشاعر يتناول ظاهرة تشكَّى منها مجتمعه حقيقة وأنها أضحت تثير

القلق، لأن في نهاية الأبيات كما أوردها أبو حيان إشارة إلى ضجر رجل من مضايقات الطفيلي الذي تعرض له الشاعر فقصد "جيان" مستخفيا، غير أن ذلك لم ينجه من ملاحقته، ثم إن تعبيره عن مرض عرفه المجتمع الأندلسي يظهر من خلال توطينها بذكر مدن أندلسية كان يتنقل بينها هذا الطفيلي وأهله الذين يعتبرون نموذجا لغيرهم من الطفيليين. ويزيد عبد الله بن فرح من التأكيد على محلية السلوك الاجتماعي الذي انتقده بتحديد نسب الجماعة التي قدمها أنموذجا له، فقد نسبهم إلى الإماميين، ولا نعتقد أن هذا النسب لا يحيل على أشخاص طبيعيين معروفين بين الناس وأنه إنما اخترعه اختراعا، فقد رأينا في هجاء الأنوف الطويلة الضخمة كيف ذكر عبد الله بن كليب صاحبه باسمه وكيف أن عبيديس في هجاء اللحى ذكر مهجوّه باسمه أيضا. معنى هذا أن هذه التسميات ليست من صنع أخيلة الشعراء إنما هي أسماء لأشخاص من صميم الواقع الذي تناولوه في أشعارهم، وهو ما أكسب هذه الظاهرة كما تناولها الشعر صبغة محلية واضحة.

ومن هذه الأدواء التي عرفتها الأندلس، وتعود أسبابها إلى الاختلالات التي كانت تعرفها العلاقات بين بعض المقربين من الحكام خاصة، الحسد والخديعة وانتشار الدسائس بين المتنافسين لنيل الحظوة عند السلطان كما جاء في المقتبس لابن حيان في سياق الحديث عن الأمير محمد: "وكان -أي الأمير- مكرما لإعلام الناس، مقدمًا على طبقاتهم لذوي الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم، ويسعف رعايتهم، ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم والتوقف على السماع من بعضهم البعض، ويسعى لاستئلافهم والإعراض عما يشاكسون فيه"[55].

ومما يبيّن خطورة هذه الظاهرة وجودها في أوساط علماء الدين أنفسهم، فالأمير محمد لم يلبث "أن سُعِي إليه بالفقيه الناسك بقي بن مَخْلِد الراوية الرحالة الباهر الفضيلة رحمه الله، ثم بالفقيه الزاهد الأديب الفاضل محمد بن عبد السلام الخشني رحمه الله أشد سعاية رُمِيا فيها بالنكوب عن السنة والركوب للبدعة وتمالأ عليهما الفقهاء بقرطبة ومن قلدهم من أهل العدالة واستعدوا عليهما السلطان فلحقهما من متقلدي أحكامه ضُرٌّ أحل بهما الفاقة ووقفهما وقتا على الهلكة حتى انتشلهما الله بفضله بجميل نظر الأمير محمد وحسن تثبته فخلصا من محنتهما بعد شدة الكرب وأبان الله برهانهما بعد إرادة الساعين بهما بما أطفأه"[56].

نقلنا كلام أحمد بن محمد الرازي على طوله حتى يتبين كيف أصبحت الدسائس وما يدعو إليها من حقد وحسد من الأدواء التي عرفها المجتمع الأندلسي حقيقة، فهذه الظاهرة يتناولها الشعراء بوصفها ظاهرة اجتماعية محلية فيبدون برمهم بها، ويتشكون منها على نحو ما نراه عند مؤمن بن سعيد الذي كان ممن علا نجمهم في القرن الثالث ولكنه كان أحد ضحايا هذه الآفة، فقد لقي عنتا من بعض منافسيه في منزلته الأدبية فحسدوه ورمقوه بعين يملؤها القذى، فلم يعد أحد منهم يحتمله من شدة استحكام هذا المرض الاجتماعي في نفوسهم، قال[57]:

إنما أزرى بقدري أنني ... لستُ من بابة أهل البلدِ
ليس منهم غير ذي مقليةٍ ... لذوي الألباب أو ذي حسدِ
يتحامون لقائي مثلما ... يتحامون لقاء الأسدِ
طلعتي أثقلُ في أعينهم ... وعلى أنفسهم من أُحُدِ
لو رأوني قَعْر بحرٍ لم يكن ... أحد يأخذ منهم بيدي

إن الحسد الذي يملأ حنايا المتنافسين على المناصب المُقرّبة من السلطان أفرز مرضين اجتماعيين آخرين هما الغيبة والنميمة اللتان، يتخذهما الحساد سلاحا للإزراء بمحسوديهم والانتقاص منهم لإسقاطهم من أعين المتقرب منهم، ويبدو أن داء الحسد هذا في الأندلس لم يكن ظاهرة سلوكية تخص فئة قليلة من الناس إنما اتسعت رقعته فأصبح ظاهرة اجتماعية ابْتُلِيَ بها عدد كبير من أفراد المجتمع. هكذا رآها يحي بن الحكم الغزال الذي عنى عناية كبيرة في شعره بتعرية مجتمع وقته من هذه الناحية، فاستحق أن يصفه جامع شعره ومحققه بالشاعر الذي انتهج النقد الاجتماعي وأنه في تناوله الظواهر السلبية في المجتمع كان ينطق بلسان الناس أو جمهرتهم[58]. إن المغتابين والنمّامين كما تناولهم الغزال لا همّ لهم سوى تتبع عيوب الآخرين ومثالبهم واصمين الغير بكل دنيئة ومنقصة سواء أكان ذلك حقا أم باطلا، في حين أنهم قد يكونون أكثر الخلق عيوبا وأثقلهم ذنوبا، لذلك انتهى الشاعر في مراقبته الظواهر السلبية في سلوك الأفراد في مجتمعه سواء أتعلق الأمر بالحسد أم بالغيبة والنميمة أو بغير ذلك انتهى الى أن البراءة منها ليست من شيم الآدميين فحتى المتظاهرين بالصلاح الذين يسلقون غيرهم بألسنة حداد ظلما وزورا لتحقيق مآربهم ليسوا أقل عيوبا ومثالب من سواهم وإن سترتها جلابيبهم، قال[59]:

الناس خَلقٌ واحد متشابــهُ لكنما تتخالـــفُ الأعمالُ
ويُقالُ حقٌّ في الرجالِ وباطـلٌ أيُّ امرئ إلَّا وفيه مقـــالُ
ولكُلّ إنسانٍ بما في نفســـه من عيّبه عن غيره أشغـالُ
يستثقلُ اللَّمَمَ الخفيف لغيره وعليه من أمثال ذاك جبالُ
ورأيتُ ألْسِنَةَ الرجال أفاعيـا طورًا تثور وتارة تغتـــلُ

وقال أيضا[60]:

إذا أُخبرتَ عن رجُـلٍ بريءٍ من الآفاتِ ظاهرُهُ صَحيحُ
فَسَلْهُم عنه: هل هو آدميٌّ؟ فإن قالوا: نعَمْ فالقولُ ريحُ
ولكن بعضنا أهل اسـتتار وعند الله أجمعُنا جريـــحُ

إن يحي الغزال في شعره هذا كان ينتقد ظواهر سلبية عرفها المجتمع على أيامه، بمعنى أنه كان يتحدث عن أدواء ذات علاقة بواقع اجتماعي معين هو الواقع الاجتماعي الأندلسي، ومن داخل هذا الواقع الاجتماعي أيضا تصدّى لظاهرة اجتماعية أخرى تفشت في عصره فشغلت الخلق وهي لعبة الشطرنج التي ذاعت في أيام الأمير محمد فأقبل الناس على تعلمها ولعبها بشغف فألهتهم عن شؤون حياتهم، وهذه أبيات ممّا قاله فيها[61]:

غَمَّنِي عِشْقُك للشّطـ رَنجِ هذا يا بْرَاهْيمُ
عملٌ في غير بِـــرٍّ واختلافٌ ولـــزومُ
إنَّما أسَّـــــها ويـ حك شيطانٌ رجيمُ
هَبْكَ فيها ألْعَبَ النا سِ فماذا يا حكيمُ؟
لعبةُ الشطرنج شُؤْمٌ فاجتنبها يا شَـؤُومُ
إنما هي لأنـــاسٍ شأنُهم شأنٌ عظيمُ
مَلِكٌ يُجْبَى إليـــه أو وزيرٌ أو نديـــمُ
أو رجالٌ ورِثـــوا الأ موال للدّهرِ سُلُومُ

إن هذه اللعبة كما قدمها الشاعر لعبة شؤم، لأنها تلهي الناس عن شؤون حياتهم فيضيعون أوقاتهم فيها من دون فائدة يجنونها منها، فهي لذلك لا تليق بعامة الناس إنما هي لعبة للخاصة ممن تتهاطل عليهم الأموال من كل وجه من دون تعب أو كدٍّ في تحصيلها فيبذرونها تبذيرا في هذه اللعبة التي يُغري بها الشيطان، فالغزال

هنا مثلما كان في أبياته السابقة يتناول ظواهر تخص مجتمعه وهي نتيجة من نتائج تحوله، فاكتسبت من ثمَّ صبغة محلية.

**خاتمة:**

بالعودة إلى ما عرضناه من نماذج لشعراء المائة الثالثة للهجرة في الأندلس نرى بوضوح كيف كان هؤلاء الشعراء في الموضوعات التي عالجوها صادرين من واقع اجتماعي معين هو الواقع الاجتماعي الأندلسي الذي بدأ يعرف منذ أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجريين تحولا في مناحٍ مختلفة منه تظافرت في حصوله طائفة من العوامل كان لها الأثر البالغ في تَشَكُّلِ الشخصية الأندلسية وتحدُّدِ معالمها، فتكونت لأصحابها رؤية للحياة ليست هي رؤية الفاتحين الأوائل، وتقلبوا في ظروف غير ظروفهم وتفاعلوا معها تفاعلا شديدا غيَّر مجرى حياتهم فأقبلوا بِنَهمٍ على ما توافر لهم من المتع منها البريء ومنها غير البريء، فهَامُوا بطبيعة بلادهم الغناء هيامًا فريدا واتخذوها مسرحًا لما أقبلوا على اقتناصه من متع الحياة التي نهلوا منها بشغفٍ ومن دون اعتدال أحيانا، هذه الحياة الجديدة بمختلف جوانبها استوحى منها عددٌ من الشعراء موضوعاتهم، فقدموا شعرا تلوَّن بألوانها الخاصة واصطبغ بصبغتها المحلية التي جعلت من الأندلس بيئة ذات مواصفات تميزها عن مواصفات بيئات أخرى، لذلك كان من الطبيعي أن يتحقق للأندلس شعرٌ تحمل موضوعاته بصمات التحوّل الذي عرفه مجتمعه في المائة الهجرية الثالثة، فمَهَرتْهُ جراء ذلك بختم أندلسي.

## الإحالات والهوامش:

[*] عبد القادر هني، مظاهر المحليّة في الشعر العربي في الأندلس في القرن الثالث الهجري. مهيّئاتها وبداية ظهور ملامحها في بعض موضوعاتها (الجزء الأول)، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2020، مج16، ع1.

[1] أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، ط1، 1952، ص ص 257-258.

[2] ينظر: عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د.ط، د.ت، ج1، ص 337.

[3] هو من شعراء عهد الأمير عبد الله الذي تولّى الإمارة سنة 275 هـ وتوفي سنة 300 هـ.

[4] ابن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص ص 43- 44.

[5] بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، مكتبة صادر، بيروت، 1937، ج3، ص 66.

[6] ينظر مثلا: المقري، نفح الطيب، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج1، ص ص 140-144. و200-202. و288-289. و345-346. وينظر: ابن عذَاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تح ومرا: ج-س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1983، ج1، ص 64.

[7] تولى الإمارة سنة 238 هـ وتوفي سنة 275 هـ.

[8] يُنظر: ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973، ص ص 237-238. وتُنظر أبيات منها عند: ابن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص 66.

[9] ابن حيان القرطبي، المقتبس، ص ص 239-241.

[**] المرأة المرمورة هي المرأة التي ترتج عند القيام.

[10] ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 91.

[11] ابن حيان القرطبي، المقتبس، ص 266.

[12] تحدث المقّري في أكثر من موضع من الجزء الأول من نفح الطيب عن مباني الأندلس في فترات مختلفة بدءًا من أيام عبد الرحمن الداخل، وتعرض أكثر من مرة إلى ما كانت تزين به هذه المباني وتُزخرَفُ، لا سيما المساجد والقصور. يُنظر مثلا: الجزء الأول من الكتاب المذكور من ص 466 إلى ص 550.

[13] إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1978، ص 107.

[14] ولد ابن عبد ربه سنة246 وتوفي سنة 328 هـ، ينظر: ابن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص 296. و: أحمد بن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، جم وتح: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979، ص 5.

[15] المرجع نفسه، ص 10.

[16] المرجع نفسه، ص 162.

[17] المقّري، نفح الطيب، ج3، ص 126-127.

[18] تنظر أمثلة ذلك عند: ابن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، الصفحات: 88، 89، 92، 98، 101، 102، 104، 107.

[19] المقّري، نفح الطيب، ج3، ص 131. وينظر: أحمد بن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص 51.

[20] هذه إشارة منا إلى تعدد مصادر ثقافة ابن عبد ربه وغناها كما يشهد على ذلك كتابه العقد الفريد.

[21] لابن عبد ربه قصيدة في وصف القلم الذي يُعد من المظاهر الحضارية ذات العلاقة ببيئته التي عرفت فيها ثقافة الكتابة نموًا كبيرا، فوصفه هذا غير منقطع الصلة بحياته الشخصية من جهة أنه من المشاهير الذين مارسوا الكتابة في عصره، وغير منقطع الصلة بمجتمعه أيضا وهو ما يُضفي عليه طابعا محليا، تنظر القصيدة في: ديوان ابن عبد ربه، ص ص 87-88.

[22] ينظر مثلا: ابن حيان القرطبي، المقتبس، ص 205، و: ابن سعيد المغربي، المغرب في حُلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، د.ت، ج1، ص 134. وينظر عند: ابن الكتاني الطيب، كتاب التشبيهات: شعر لابن عبد ربه، ص ص 88-89، وص98 و101-102 وشعر لعبد الله بن الشمر نديم الأمير الرحمن الأوسط، ص 101 وشعر للعتبي ص89.

[23] آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1955، ص 44.

[24] ليس المراد هنا بالجدة أن الأندلسيين هم الذين فتحوا باب المزج بين الطبيعة والخمر، ففي شعر الخمر عند المحدثين في العصر العباسي أمثلة عنه، لكن هذه الظاهرة لم تبلغ ما بلغته في الشعر الأندلسي من حيث الرقعة التي كانت تخصص للطبيعة في الشعر الذي وصفت فيه مجالس الخمر التي دارت في رحابها.

[25] لا يعني كلامنا هذا أنه لم يوجد في الأندلس شعر احتلت فيه الخمر مساحة واسعة، فكلامنا يخص النماذج التي غلبت فيه الطبيعة على نعت الخمر غلبة واضحة وهو ما اعتبرناه ظاهرة تعكس واقعا مَعِيشًا في الأندلس، أما بعد ذلك فإن النماذج التي عُني فيها أصحابها بنعت الخمر أكثر من عنايتهم بغيرهم لم يخْل منها الشعر الأندلسي في الفترة التي تتحدث عنها ففي كتاب التشبيهات لابن الكتاني مثلا عدد من أمثلتها.

[26] ابن سعيد، المُغرب في حُلى المَغرب، ج1، ص ص 50-51.

[27] ابن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص 23.

[28] المرجع نفسه، ص 19.

[29] جميل سعيد، تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس، مصر، ط1، 1945، ص ص 41-42.

[30] ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص 89.

[31] المرجع نفسه، ص 94.

[32] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص 77. و: ابن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص ص 88-89.

[33] المرجع نفسه، ص 118.

[34] المرجع نفسه، ص 97.

[35] يحي الغزال، ديوان يحي الغزال، تح وشر وتق: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، ط1، 1983.

[36] الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، تح: محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1950، ص 69.

[37] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص 125.

[38] من أهم علماء الأندلس الذين اكتسب منهم هذه الثقافة الفقهية الواسعة بقي بن مخلد وابن واضح والخشني، ينظر: ديوان ابن عبد ربه، ص 5.

[39] ينظر: عبد القادر هني، تجليات تحول المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع18، 1435هـ2013م، ص 51-52. وسنستفيد مما كتبناه في هذا المقال في مواضع أخرى مما نحن بصدده.

[40] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، مصر، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1978، ص 187.

[41] كان في عهد الأمير عبد الله بن محمد (275- 300 هـ)، ترجَم له د/ إحسان عباس، ينظر ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص ص 321- 322.

[42] ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص ص 261-262.

[43] المقّري، نفح الطيب، ج1، ص 223.

[44] ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص 260.

[45] لا نعني بهذا أن الشعراء المحدثين في المشرق لم يتناولوا في هجائهم مثل هذه الموضوعات فعند ابن الرومي مثلا نماذج منها، غير أن ما تناوله شعراء الأندلس في هذا الباب ليس صدى لما طرقه المشارقة، إنما هو نتيجة من نتائج التحول الذي حدث في المجتمع الأندلسي.

[46] ينظر: عبد القادر هني، تجليات تحول المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ص 59-60.

[47] يحي الغزال، ديوان يحي الغزال، ص 58.

[48] المقّري، نفح الطيب، ج3، ص 156.

[49] يُنظر: يحي الغزال، ديوان يحي الغزال، ص 17.

[50] تنظر أبيات لابن عبد ربه ولعبد الله بن الشمر عند: ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص 101-102. وص104.

[51] ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص 257.

[52] عنوانها الأصلي: la vida de lazarillo de tormes sus fortunas yadversidades وأقدم طبعة معروفة لهذه الرواية تعود إلى1554م. ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي هذه الرواية إلى العربية بالعنوان المذكور أعلاه، وطبعها المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد سنة 1997.

[53] ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص 256. وتنظر الأبيات كاملة عند: أبي حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، الصاحب بن عباد وابن العميد، تح: محمد بن تاويت الطنجي، المجمع العلمي العربي، دمشق، د.ت، ص 398-399.

[54] في أخلاق الوزيرين: "شنت طولة"، ويرجح إحسان عباس أن تكون "شنت توله" يُنظر ابن الكتاني، كتاب التشبيهات، ص 256، هامش 5.

[55] ابن حيان القرطبي، المقتبس، ص 245.

[56] المرجع نفسه، ص 247.

[57] أحمد بن عبد ربه، أبو عمر، العقد الفريد، ض وش: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط.2، 1948، ج2، ص 351. ونسب المقري في نفح الطيب، ج2، ص 149 هذه الأبيات إلى القاضي محمد بن بشير، وهو خطأ لأن ابن عبد ربه عاصر مؤمن بن سعيد فمن المستبعد أن يلتبس عليه الأمر.

[58] ينظر: يحي الغزال، ديوان يحي الغزال، مقدمة المحقق، ص 20، وص 19.

[59] المرجع نفسه، ص ص 93-94.

[60] المرجع نفسه، ص 59.

[61] المرجع نفسه، ص 103.

## قائمة المصادر والمراجع:


1- ابن الكتاني الطبيب، أبو عبد الله محمد، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دون تاريخ.

2- ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق وتقديم وتعليق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973.

3- ابن سعيد وآخرون من عائلة ابن سعيد، المُغرب في حُلى المَغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.

4- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان و إ. ليفي بروقنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.

5- أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: أحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1973.

6- أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين: الصاحب بن عباد وابن العميد، تح محمد بن تاويت الطنجي، المجمع العلمي العربي، دمشق، دون تاريخ.

7- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1978.

8- أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، دون تاريخ.

9- أحمد بن عبد ربه، أبو عمر، العقد الفريد، ضبطه وشرحه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1948.

10- أحمد بن عبد ربه، أبو عمر، ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه وشرحه: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979.

11- أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965.

12- أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

13- الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1950.

14- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1952.

15- آنخل جانثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسن مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1955.

16- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، مكتبة دار صادر، بيروت، 1937.

17- جميل سعيد، تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس، مصر، الطبعة الأولى، 1945.

18- عبد القادر هني، تجليات تحول المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثامن عشر، 1435هـ- 2013م.

19- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دون دار طبع، دون تاريخ.

20- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1978.

21- يحي بن حكم الغزال، ديوان يحي بن حكم الغزال، حققه وشرحه وقدم له: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1983.